مطالع السعود
بأخبار الوالي داود

تأليف

الشيخ عثمان بن محمد بن أحمد بن سند البصري

(٠٠٠٠ ــ ١٢٥٠هـ)

اختصار

أمين الحلواني

رحمهما الله

نسخة مقتطعة من كتاب خزانة التواريخ النجدية
جمع وترتيب
الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام
رحمه الله تعالى

ترجمة المؤرخ

الشيخ عثمان بن محمد بن أحمد بن سند

(٠٠٠٠ ــ ١٢٥٠هـ)

الشيخ عثمان بن محمد بن أحمد بن راشد بن سند بن راشد بن حمد بن ناصر بن راشد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن مدلج بن حمد بن رباع آل أبو رباع، الذين هم من آل حسني ثم من آل بشر ثم من قبيلة عنزة القبيلة الوائلية الربعية العدنانية.

فأسرة آل سند من بطن آل أبو رباع من قبيلة عنزة، وآل أبو رباع كانوا يقيمون مع أبناء عمهم آل مدلج في بلدة (التويم) ــ بضم التاء المشددة بعدها واو مفتوحة ــ ، إحدى بلدان سدير.

ثم إنه في أول القرن السابع توجه علي بن سليمان بن حمد وابن عمه راشد بن سليمان إلى (حمد بن عبد الله بن معمر)، رئيس مدينة العيينة، فاشتريا منه مكان بلدة حريملا، وكانت أطلالاً بعد سكانها آل أبو ريشة أسرة من الموالي ضعف أمرهم، وذهبوا واستولى عليها (ابن معمر) بعد رحيلهم.

فاشترى علي وراشد حريملا، وانتقلت إليها أسرتهما وعمروها وسكنوها، وصارت هي قاعدة بلدان الشعيب، وتفرق كثير من أسر آل أبو رباع في بلدان نجد وغيرها، وانتقل منهم أسر إلى الزبير.

وكان ممن انتقل أسرة المترجَم (آل سند)، انتقلوا إلى الكويت، وذلك في أول القرن الجادي عشر الهجري، فوُلد المترجَم في جزيرة (فيلكة) التابعة لدولة الكويت، ونشأ في هذه الجزير التي يمتهن فيها أسرته صيد الأسماك، وأخذ فيها مبادىء القراءة والكتابة.

ثم إنه رغب في العلم، فنزح إلى مدينة البصرة القريبة من جزيرته، وكان غالب سكان الخليج يتبعون مذهب الإمام مالك، فصار هو مذهب المترجَم.

والجامع الذي استفاد منه هو جامع الكواز: (فحلة المشرق)، إحدى محاليل البصرة، وبعد أن أكمل دراسته في الكواز، انتقل إلى المدرسة المحمودية، ودرس فيها العلوم الطبيعية كالجغرافيا والتاريخ والعلوم العصرية، ثم انتقل إلى المدرسة الخليلية، واستوفى في هاتين المدرستين ما فيهما من العلوم.

كما قرأ في البصرة على العلاّمة الشيخ محمد بن فيروز، وعلى الشيخ إبراهيم بن ناصر بن جديد والشيخ عبد الله بن شارخ، والعالم الكبير الشيخ عبد الله البيتوشي، وعلى غيرهم من علماء البصرة والزبير.

ثم رحل إلى بغداد فأخذ عن علمائه، كالصدر السيد محمد أسعد الحيدري، مفتي الحنفية والشافعية ببغداد، والشيخ محمد أمين، مفتي الحلة؛ والسيد أحمد الحياني، قاضي بغداد. وقرأ على علامة العراق والشام الشيخ علي بن الملا محمد بن سعيد السويدي، وعلى الشيخ السيد زين العابدين المدني حين وروده إلى بغداد، وعلى الشيخ خالد النقشبندي.

ثم إنه حجَّ وجاور بمكة المكرمة والمدينة المنورة مدة قرأ فيها على علماء الحرمين وعلى من يرد إليهما من العلماء.

والمترجَم من النوابغ في سرعة الحفظ وجودة الفهم وبطء النسيان

والرغبة العظيمة في العلم والجد العظيم في تحصيله، وهذه العوامل الهامّة صيَّرت منه ــ مع توفيق الله تعالى ــ آية كبرى في المحصول العلمي، وبكونه موسوعة كبرى في العلوم الشرعية والعلوم العربية والعلوم التاريخية وغيرها.

وقد درَّس في البصرة والزبير، وأخذ عنه تلاميذ كثيرون، منهم:

١ ــ الشيخ عبد اللطيف بن سلوم.

٢ ــ الشيخ عبد الرزاق بن سلوم.

٣ ــ الشيخ عبد الوهاب بن محمد بن حميدان بن تركي.

٤ ــ الشيخ عثمان بن محمد المزيد.

٥ ــ الشيخ محمد بن تريك.

وقد عُيِّن مديرًا ومدرسًا لمدرسة في البصرة بناها المحسن الثري محمود بن عبد الرحمن الرديني النجار البصري، وكانت هذه المدرسة في البصرة تسمى (المدرسة الرحمانية)، شقيقة الأزهر من حيث الأهمية، فكل متخرجي هذه المدرسة في عصره من تلاميذه.

كما تولى في البصرة الإفتاء والتدريس في المدرسة (الخليلية).

ثم إن الوالي داود باشا طلب منه المجيء إلى بغداد، فسافر إليه، فلمّا وصل إليه أجلَّه وعظَّمه وجعله سميره ونديمه، فكان يقضي أكثر أوقات فراغه معه لما يجد في مجالسته من العلوم المنوعة والآداب الجمة.

كما عظَّمه علماء بغداد، وتتلمذوا عليه، واستفادوا منه، واعتبروا وجوده بينهم غنيمة كبرى، فهو شيخ العصر من حيث وفرة العلوم وتنوع المعارف.

ثم إن الوجيه الكبير أحمد بن رزق طلب منه زيارة بلده الزبارة،

فاستأذن من الوالي داود، فأذن له في ذلك، فذهب فجعله الصدر المقدم في بلده، واحتفى به احتفاء بالغًا، واعتبر قدومه إليه زينة لبلاده، وغنيمة في بساطه، ورغب منه دوام البقاء عنده، ولكن الزيارة تضيق عن معلوماته وتصغر في وجه نشاطه العلمي، فعاد إلى عاصمة الرشيد بغداد.

مؤلفاته:

هي كثيرة جدًا، ومفيدة لأنها ليست مجرد نقل، وإنما كتبها من علوم هضمها، ومعارف شربها، فجاءت مؤلفاته بأفكار حرة من معارفه الخاصة، وبمعانيه المبتكرة، وصاغها بأسلوبه الأدبي وجمله البليغة، ومن هذه المصنفات:

١ ـ الشذرات الفاخرة في نظم الورقات الناضرة، نظم في أصول الفقه[1].

٢ ـ منظومة في فقه المالكية سماها: الدرة الثمينة، في مذهب عالم المدينة.

٣ ـ تحفة التحقيق لمعرفة الصديق، في ألغاز الفرائض، توجد مخطوطة.

---

(١) وقد قرّظها السيد الشيخ محمد الرافعي أديب طرابلس الشام بقوله: وقفت على هذه الشذرات ففضلتها على شذرات الذهب، وقلّبت طرفي في هذه الزهرات التي أصابها صوب الأدب فتصاعدت الزفرات إليها شوقًا إلى ناظمها، فكيف مثل هذه الدرة أن تحرم منه الشام وتحظى به البصرة، ولعمري إنه لجدير أن تُشد إليه الرواحل، ويُرفع مقامه على الرؤوس والكواهل، ويفضل على أبناء عصره تفضيل الفرض على النوافل. كتبه الفقير محمد الرافعي، وهو في حلب عام ١٢١٥هـ.

وقرّظها الشيخ عبد الله العطاني فقال: نظرت في هذه الشذرات التي هي كالزهرات، فلو رآها ابن الوردي لقال: هذه من بعض وردي، ولا أظن يبري الزمان أخاها رومًا يجري مجراها، كيف وناظم عقدها وناسج بردها الفاضل النبيل وارث سيبويه والخليل عثمان بن سند، فلقد رأيته في حلب فرأيت منه العجب.

٤ ـ الفائض في علم الفرائض، توجد في مكتبة المحامي عباس عزاوي ومكتبة العزاوي انتقلت إلى مكتبة جامعة الملك سعود في الرياض.

٥ ـ النخبة في أصول الحديث.

٦ ـ نظم النخبة في أصول الحديث للحافظ ابن حجر.

٧ ـ شرح ذلك النظم.

٨ ـ منظومة في العقائد سماها: (هادي السعيد في جوهرة التوحيد)، ضمنها جوهرة البرهاني اللقاني، وزاد عليها.

٩ ـ الصارم القرضاب في نحر من سب أكارم الأصحاب، وهي مجموعة شعرية تضمنت أكثر من ألفي بيت، وجميعها في الرد على الشاعر الشيعي دعبل الخزاعي، وهي عندي أنا محرر هذه التراجم بخط الشيخ محمد بن عبد الله بن حميد صاحب السحب الوابلة في طبقات الحنابلة، ويوجد منها نسخة في مكتبة (رامبور) في المكتبة العباسية[١].

---

(١) لما قال هذه القصيدة التي ردَّ بها على الشاعر الشيعي دعبل ـ قبَّحه الله ـ أجازه عليها الشيخ يوسف بن أحمد بن محمد بن رزق العقيلي جائزة سنيةً فأتبع عثمان بن سند ردّه على دعبل بهذه القصيدة في مدح يوسف بن رزق وهي هذه:

أَلَسْتَ بِبحرٍ أنجبتْك بحور	نحتها إلى أوج الكمال بدور
سمرتَ بأقطاب على قطب رأيهم	دوائر أفلاك الأمور تدور
أيوسف فافخر إنما أنت طالع	به السعد يبدو والشرور تغور
بعثتَ الندى طفلاً وأجريتَ عينَه	كأن الندى ميت وبَذْلُكَ صور
وإن لسان المدح عنك لقاصر	ولو لم يكن فيما فعلتُ قصور
ويا ربُّ فرع فاق بالبذل أصلَهُ	وإن أخَّرَتْه أزمنٌ وعصور

إلى تمام القصيدة، وهي في (٢٤) بيتًا.

١٠ ــ أصفى الموارد من سلسال أحوال بني خالد، قال الشيخ صالح بن عثيمين في كتابه (السابلة): هو كتاب نفيس يحتوي على فوائد تاريخية وفوائد أدبية، ومن اطلع عليه علم ما للمترجَم من اليد الطولى في فنون الأدب.

١١ ــ كتاب نظم في تاريخ ومدح الإمام أحمد بن حنبل.

١٢ ــ مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، وهو كتاب ضخم جمع فيه وقائع القرنين الثاني عشر وأول الثالث عشر، وهو عندي، وهو من مراجع هذه التراجم التي نجمعها.

وقد اختصر مطالع السعود الشيخ أمين الحلواني المدني في ثلاث كراسات، وطبعه محب الدين الخطيب بمطبعة الفتح، وعلق عليه. والحلواني زاد فيه، ومن تلك الزيادة أنه زار الإمام فيصل بن تركي آل سعود في الرياض، ووصف بلاط الإمام فيصل، وهذه الزيادة وقعت بعد وفاة مؤلف الأصل.

١٣ ــ الغرر في وجوه وأعيان القرن الثالث عشر، ولكنه لم يتم.

١٤ ــ سبائك العسجد في أخبار أحمد بن رزق الأرشد[١].

١٥ ــ تاريخ بغداد.

أما مؤلفاته في اللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وعروضها فهي:

١٦ ــ نظم مغني اللبيب لابن هشام في خمسة آلاف بيت، وهو من أهم كتب قواعد النحو.

---

(١) وأحمد بن رزق هو أحمد بن حسين بن رزق العقيلي أحد بني جبر، انتقل من بلد الزبارة، واستوطن بلدة ــ قردلان ــ ، وقد توفي فيها عام ١٢٢٤هـ، وخلّف أموالاً عظيمة، وثروة كبيرة آلت إلى ابنه محمد.

١٧ ــ نظم الأزهرية للشيخ خالد الأزهري.

١٨ ــ نظم قواعد الإعراب لابن هشام.

١٩ ــ منظومة في مسوغات الابتداء بالنكرة، توجد في مكتبة الشيخ محمد العوجان إن كانت لا تزال محفوظة.

٢٠ ــ منظومة في العدد.

٢١ ــ كشف الزبد عن سلسال المدد في تذكيره وتأنيثه.

٢٢ ــ هدية الحيران في نظم عوامل جرجان، أي عوامل القاضي الجرجاني.

٢٣ ــ رسالة في كسر همزة إن وفتحها نظم في (٤٢) بيتًا، توجد في المكتبة العباسية في البصرة.

٢٤ ــ الغشبان عن مثلة الإنسان في النحو والصرف، وتحتوي على (٢٤٧) صفحة توجد في المكتبة العباسية في البصرة.

٢٥ ــ تعليقات على شرح الكافية للرضي، توجد في المكتبة العباسية في البصرة.

٢٦ ــ منظومة في البلاغة، توجد في المكتبة العباسية لآل باشا أعيان.

٢٧ ــ الجوهر الفريد في العروض.

٢٨ ــ منظومة في علم القوافي باسم (السلسبيل الصافي) منها نسخة في خزانة كتب الآلوسي.

٢٩ ــ منظومة في قافية موحدة اسمها: (الجيد في العروض).

٣٠ ــ منظومة أخرى في الموضوع نفسه.

هناك رسائل وقصائد ومناظيم كثيرة للمؤلف، ولكنها موزعة بين المكتبات الخاصة والعامة.

وليت بعض الشباب الجاد حاول جمع تراثه، وقدَّم فيه شهادة، فإنها ستنال إعجاب العلماء والمفكرين.

ما قاله العلماء عن المترجَم:

ـ قال الشيخ عثمان المزيد من سكان مدينة عنيزة: وأنشدنا لنفسه شيخنا العلاَّمة الفاضل الشيخ عثمان بن سند المالكي البصري ومدرسها:

حذار حذار من إغضاب شيخ — فإن الشيخ معروف الحقوق
فإن الله يغفر كل ذنب — سوى ما للمشايخ من عقوق
فلا تطلب بلا شيخ علومًا — فذا حمق يؤدي للفسوق
فـ (طه) شيخه جبريل يروي — عن الله تعالى ذا وثوق

ـ وقال الشيخ بهجة الأثري: ابن سند العربي الفحل المسلم، مثله من ينهد لمناهضة دعبل الخزاعي، ويكيل له الصاع صاعين في الدفاع عن حياض سادات المسلمين.

ـ وقال بعض مؤرخي الزبير: الشيخ عثمان بن سند من أكابر العلماء الأجلاء الذين تفخر بهم البصرة والزبير، ساجل علماءها وألَّف الكثير في علوم العربية والمنطق وسائر العلوم، وهو إلى ذلك شاعر فحل.

ـ وقد ترجم له مراد أفندي فقال: الشيخ عثمان بن سند النجدي ثم البصري الوائلي نسبًا، هو الإمام العلاَّمة الرحلة النبامة، حسَّان زمانه، وبديع أوانه، خاتمة البلغاء، ونادرة النبغاء، صاحب المؤلفات البديعة منها (أصفى الموارد) كتاب نفيس يحتوي على فوائد تاريخية وفوائد أدبية، من اطلع عليه عَلِمَ ما للمترجَم من اليد الطولى في فنون الأدب نظمًا ونثرًا.

ـ وقال الشيخ خالد النقشبندي: إن الشيخ عثمان بن سند حريري الزمان، وقد أثنى عليه جمع من الأئمة.

ـ وقال الشيخ الفاضل أحمد الشهواني اليمني في كتابه (حديقة الأفراح): القول فيه (عثمان بن سند) إنه طرفة الراغب، وبغية المستفيد الطالب، جامع سور البيان، ومفسر آياتها بألطف تبيان، أفضل من أعرب عن فنون لسان العرب، وهو إذا نظم أعجب، وإذا نثر أطرب، إنه لإمام هذا العصر.

وقد صنَّف مطالع السعود في أخبار الوالي داود، جمع فيه إلى أخبار العراق وأحداثه وأخبار نجد باديتها وحاضرتها، ولما اطلع عليه الوالي داود أكرمه وأجله وأدناه، وصار هو جليسه ونديمه، وعلم من هذا السفر الجليل قيمة الشيخ عثمان بن سند العلمية والأدبية والتاريخية.

ـ وقال أحد مؤرخي الكويت: إن نزوع ابن سند في فن السيرة نزوع المؤرخ الضليع، ولسنا نجافي الواقع لو أطلقنا عليه اسم (مؤرخ الخليج العربي) لعديد ما وضع من المؤلفات في الجغرافيا، وسيرة أبناء هذا الساحل العربي الأصيل.

ـ وقال الشيخ إسماعيل المدني: إن هذا الفاضل ممن شاع ذكره، وملأ الأسماع مدحه وشكره، فهو من العلماء العارفين، ومن أفاضل المحدثين، له اليد الطولى في العلوم العربية، والفنون الأدبية، نَظَمَ غالب المتون من سائر الفنون، وقد اشتهر في هذه الديار، وظهرت ظهور الشمس في رابعة النهار، وكان حنبلي المذهب، فتحوَّل إلى مذهب الإمام مالك.

ـ وقال الشيخ يوسف بن راشد المبارك: الشيخ عثمان بن سند هو العلاَّمة، والعمدة الفهَّامة، له تاريخ مطالع السعود، فيه غرائب وفوائد قد

أفنى على الدهر، ولولا هذا الإمام لكانت هذه الوقائع في عالم النسيان.

ــ وقال جامع هذه التراجم عبد الله بن عبد الرحمن البسام عفا الله عنه: إن الشيخ عثمان بن سند من كبار العلماء، ونوابغ البلغاء وفحول الشعراء وأنه موسوعة علمية في كل باب من أبواب العلم، وفي كل فن من فنون الآدب، فهو عالم عصره، وعلامة مصره.

ونحن نثني عليه، وندعو له حينما تصدى للشاعر الهجّاء الخبيث دعبل الخزاعي الذي تهجّم ــ قبّحه الله ــ على سادات الصحابة أبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة وأندادهم، فهجاهم وشتمهم وازدراهم، فتصدى له الشيخ عثمان بن سند بالرد عليه بمجموعة شعره (الصارم القرضاب في نحر مَن سب أكارم الأصحاب) فكان في هذا الرد البليغ ما يشفي العليل ويروي الغليل.

ونحن نعتب على الشيخ عثمان ونلومه، وهو النجدي الأصل، ونجد هي منبت السلفية أن ينحاز مع المنحرفين عن هذه الدعوة السلفية، ويكون مع أصحاب الطرق الصوفية، ثم لا يكفيه هذا حتى تناول بالسب والنقد شيخ الإسلام ابن تيمية صاحب المدرسة السلفية مما جعل الشيخ عثمان بن منصور الناصري يرد عليه، وهو معاصر له ومجاور في العراق مدة الطلب.

وكتاب الشيخ عثمان بن منصور اسمه: (الرد الدافع على الزاعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية زائغ)، تأليف الشيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور النجدي عفا الله عنه.

ــ وقال الشيخ عثمان بن منصور في مقدمة رده: قال عثمان بن منصور الناصري العمري التميمي الحنبلي ستر الله عيوبه، وغفر له ذنوبه،

ردًا على عثمان بن سند الفيلكي ثم البصري سامحه الله، لما سب شيخ الإسلام وقدوة الأعلام أحمد بن تيمية قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه، ونَسَبَه مع ذلك إلى التجسيم والتضليل في محاورة صدرت بيني وبينه، فأتىٰ به فيها معترضًا بسبه، وأنا أسمع بحضرة تلميذ له يقال له (محمد بن تريك) فأبدى بالكلام في ذلك السب، وأقذع وسب مع ذلك نجدًا وأهلها، فحينئذٍ لم أتمالك عند سبه شيخ الإسلام إلاَّ أن قلت منتصرًا له...

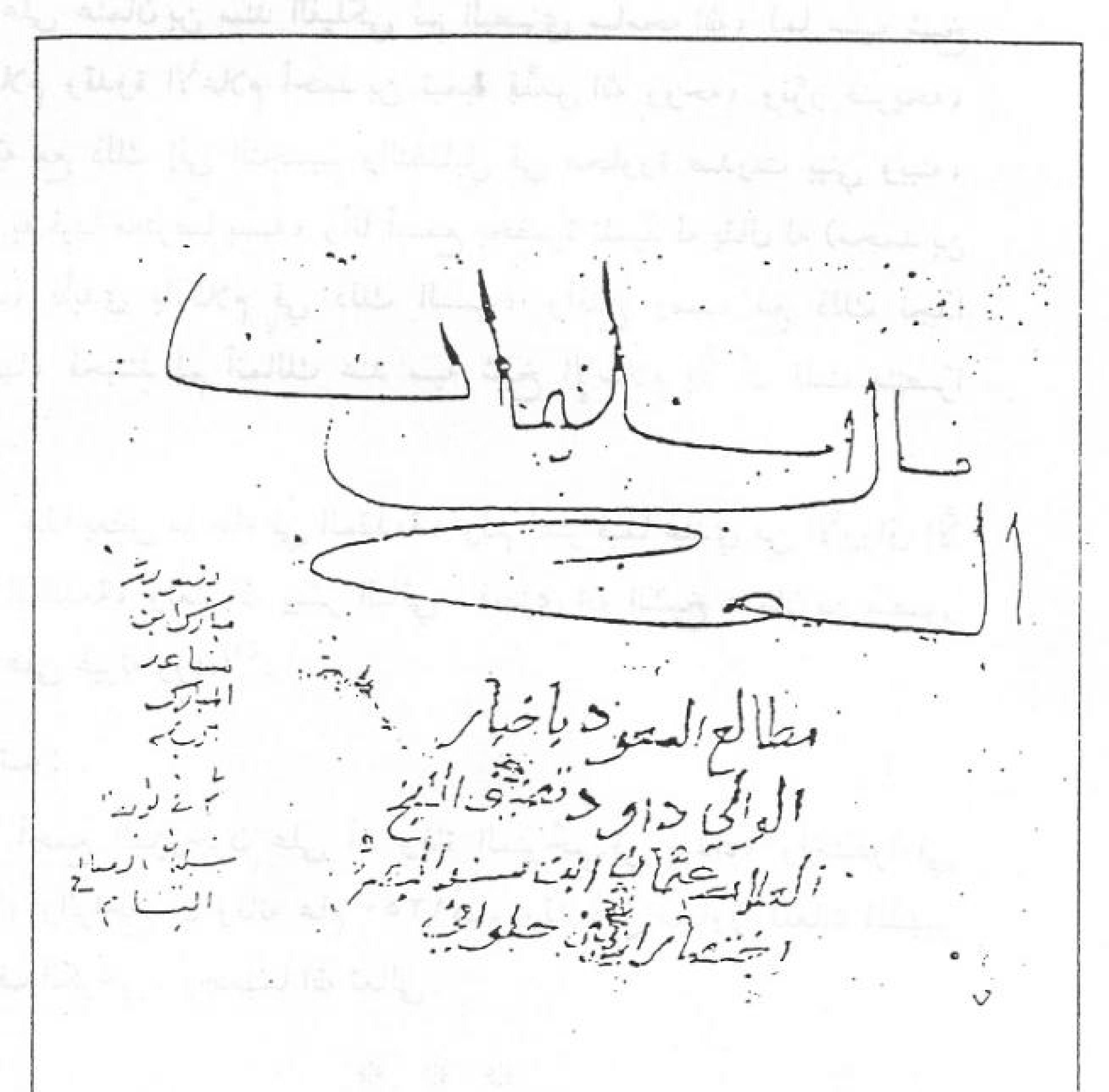
هذا بعض ما جاء في المقدمة، ولم أعثر فيما عندي من الأوراق إلاَّ على المقدمة، ولعل الله ييسِّر الباقي، فجزى الله الشيخ عثمان بن منصور خيرًا على غيرته ورده[1].

وفاته:

أجمع المؤرخون على أن وفاة المترجَم في بغداد، واختلفوا في سنتها، والراجح أن وفاته عام ١٢٥٠هـ، وقد دُفن مجاورًا للعابد الشهير معروف الكرخي. رحمهما الله تعالى.

* * *

(١) بعد هذا عثرنا عليها، وذكرناه في ترجمة الشيخ عثمان بن منصور. المقدمة.


مطالع السعود بأخبار
الوالي داود تصنيف الشيخ
العلامة عثمان ابن سند البصري
اختصار أمين حلواني

صورة صفحة العنوان من مخطوط «مطالع السعود بأخبار الوالي داود»،
للشيخ عثمان بن سند البصري، باختصار أمين الحلواني.

سند البصري من اخبار الوزير داود باشا والي بغداد وبعد هذا
صار المولف يسرد ابحاثا ادبيه وقصائد ونثرا داله على
سعة باعه في المنثور والمنظوم ولكننا لخلوها من الوقائع
التاريخيه اضربنا عنها فان اكثرها احاجي ونوادر على
طريق المقامات ليس هذا المختصر محلها وقد تم
المختصر على يد جامعه الفقير اليه تعالى امين
ابن حسن حلواني المدني الحنفي تغمده
الله برحمته تحريرا في ٥) المتقدم
سنه ١٢٩٣ ثلاث وتسعين
ومائتين والف من هجرة
سيد المرسلين صلى
الله عليه وسلم.

صورة آخر ورقة من مخطوط «مختصر الحلواني لكتاب مطالع السعود» للشيخ عثمان بن سند البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الفقير إلى الله تعالى الملتجي إلى حرم نبيه ﷺ أمين بن حسن حلواني المدني عفا الله عنه:

هذا مختصر تاريخ الشيخ عثمان بن سند البصري ألّفَهُ في أخبار داود باشا والي بغداد سابقًا، ولقد أطنب وأجاد فيما أبدعه من المديح ومن المنشآت التي هي الزمن السلافة، فاختصرته مع حذف المكرر والقصائد والمديح الزائد، واقتصرت منه على مادة التاريخ فقط، لأنه هو المقصود بالذات في زماننا وأما علم الأدب فله كتبٌ مختصة به يؤخذ منها وليس لي في هذا التاريخ إلاّ مجرّد الاختصار مع بقاء المعنى على حاله إنما الشيخ رحمه الله تعالى لم يكتب إلاّ إلى سنة [. . .][1] مع أنه توفي رحمه الله سنة [. . .][2] والوزير داود باشا ظل في ولاية بغداد إلى سنة [. . .][3] ولم نعلم السبب الذي منع الشيخ من تتميم التاريخ في هذه الأربع سنين الأخيرة مع أنّ أطيب زمان داود باشا هذه الأربع سنين لأنه فيها انتهت له الرياسة وتمت له القوة والدولة، وأطاعه جميع العراق الحضر والبدو،

---

(١) تاريخ غير مفهوم في الأصل.

(٢) تاريخ غير مفهوم في الأصل.

(٣) تاريخ غير مفهوم في الأصل.

وفيها عصى على السلطان واستبدَّ وطلب الاستقلال، أي بأن يكون ملكًا مستقلاً على العراق وضرب السكة باسمه وعمل سائر أسباب الاستقلال.

فهذه الأربع سنين الأخيرة هي أحقُّ بتاريخها لكثرة الوقائع المتشعبة فيها لكن داود باشا لم تساعده المقادير كما ساعدت محمد علي باشا والي مصر بل داود باشا جهّز السلطان محمود عليه عسكرًا ورئيسه علي باشا فانهزمت عساكر داود باشا أو خانته فأسره علي باشا وأرسله إلى إسلامبول وظل فيها مركونًا إلى سنة، ثم أرسلته الدولة العلية واليًا على المدينة المنورة وبقي فيها إلى سنة، ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى، ودفن بالبقيع الشريف بقرب مدفن سيدنا عثمان بن عفان وجعل على قبره شباكًا من الحديد بدل القبة ولعل هذا بوصية منه [١].

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام العالم النحرير الشيخ عثمان بن سند البصري تغمده الله في بحبوحة جنانه، وبعد:

فقد كنت أوعدت حضرة الوزير داود باشا في سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف بتأليف تاريخ يتضمن ذكْر أوصافه، فتطاولت أيام الوعد وظنّ أني نسيت لطول العهد، وما ذلك إلاّ لكثرة همومي بتسليط نوائب الدهر عليّ ولَكَمْ حثّني الأديب عبد القادر بن عبيد الله الحيدري قاضي البصرة على تنجيز ما أوعدتُ به، وكذلك ألحّ عليّ محمد أسعد أفندي بن النائب ثم بعد مضي سنوات أرسل إليّ الوزير المذكور وطلبني للحضور بين يديه وأكرمني وألحّ عليّ في تتميم هذا التاريخ وذلك في سنة ١٢٤١هـ إحدى وأربعين ومائتين وألف، فابتدأت بالتاريخ مترجمًا له قبل وزارته إلى آخر المدة مبتدءًا من سليمان باشا[1] إلى ابنه سعيد باشا المقتول.

وُلد الوزير المترجَم داود باشا في بلدته[2] سنة ١١٣٨هـ ثمان

---

(١) سليمان باشا هذا هو سيد داود باشا، وهو الذي اشتراه ورباه وعلمه.

(٢) في بلدته ما نعلم اسم بلدته، وقد سمعنا من أفواه شيوخ هذا أنه أهل بلد داود باشا هي بلاد الكرج، وأن أصل من اشتراه وجلبه إلى بغداد مصطفى بك الربيعي، ثم أهداه إلى سليمان باشا، وأسلم على يده وعلمه القرآن والعلوم إلى أن صار من أمره ما صار، والله أعلم.

وثلاثين ومائة وألف بالتخمين، وبدليل قوله بنفسه أنه قدم بغداد وعمره إذ ذاك إحدى عشر سنة، والوزير سليمان باشا محاصر الحسكة من أرض الخزاعل ثالث مرة، وتلك المحاصرة معلومة عندنا أنها في سنة ١١٩٩هـ تسع وتسعين ومائة وألف ولما قدم بغداد أسلمْ وحسن إسلامه وقرأ القرآن وجوّده ولا زال يترقى في جميع العلوم إلى أنّ انتهت له الغاية القصوى والمعارف وجمع له بين الرياسة والانفراد في العلوم على جميع ممالك العراق.

فمن الوقائع التي وقعت سنة ولادته محاصرة الزندي الرافضي البصرة وحاصرها بالجيوش والأعراب، وصبروا أهلها على الشدائد وحاموا عن وطنهم ودينهم وكان مستلميا إذ ذاك سليمان بيك الذي آلت إليه فيما بعد وزارة بغداد فصابر وحامى عن البصرة بهمته، وكان الوزير في بغداد إذ ذاك عمر باشا فبلغه الخبر ولم يمد أهل البصرة في تلك الشدائد حتى أكلوا الكلاب والهرر، وقد حضر ثامر بن سعدون وتريني بن عبد الله شيخ المنتفق، أول المحاصرة لكنه لما اشتدّ الحصار فرأوا سليمان بيك لا زال يكابد في المحاصرة الأهوال، وهو ينتظر المدد من الدولة العلية، ومع ذلك عمر باشا يكرر الرسل إلى إسلامبول ويطلب المدد من الدولة وهم لا يساعدونه إلاّ بالمواعيد ثم إنه بعد مدّة طويلة أرسلت الدولة العلية عَرَضيًا جرار لمعاونة عمر باشا [٢] في العرضي ثلاثة وزراء عبد الله باشا ومصطفى باشا وعبدي باشا، فلما خيّموا حول بغداد أشاعوا أن السلطان صالح هو وملك العجم كريم خان، وأنه سيُخرج الروافض من البصرة، ثم إنهم أظهروا عزل عمر باشا فصرف عن الوزارة وخيّم خارج بغداد، وتولّى الوزارة بدله مصطفى باشا، وبعد أيام أحاطوا بعمر باشا ليلاً وقطعوا رأسه، وأظهروا أن أمرًا بذلك. وهذا في سنة ١١٩٠هـ، فمدّة حكمه ثلاث عشرة سنة.

ثم إنّ مصطفى باشا ظهر أنه محبٌ للعجم في الباطن، فأرسل إلى مستلم البصرة سليمان بيك يخبره أن المدد من الدولة بعيد جدًا، وأنه مطّلع على حقيقة الحال فيأمر سليمان بيك إما أن يصالح العجم، أو أنه يُسلِّم لهم البلدة، وأيضًا كتب بخلاف الواقع إلى الدولة العلية أنا صلحنا مع العجم انتظم وأنهم رفعوا عساكرهم عن البصرة، فلما سمع أهل البصرة هذا الخبر أيقنوا أنهم آلوا إلى التلاف فخرج أعيان البصرة إلى صادق خان رئيس عرضي العجم، وطلبوا منه الأمان على النفوس والأعراض، وأباحوا له ما سواهما، فدخل البصرة وأباحها أيامًا وعمل فيها هو وعسكره من الهتك ما لم يُسمع به في ملّة قط وقبض على أعيانها، وعلى سليمان بيك، وهذا خلاف المعاهدة وسُبَّ أصحاب النبي ﷺ على المنابر، ونودي بحي على خير العمل، وهرب العلماء، وكل من له قدرة على الهروب، وصار العجم يضربون الناس بالسياط والعصي لأجل المغارم وكل يوم يزيد البلاء إلى أن خرجت البصرة وفرَّ أهلها.

وكتب الأديب عبد الله بن محمد الكردي البيتوشي كتابًا جمع فيه من البلاغة أنواعًا إلى سليمان بن عبد الله بن شاوي الحميري لكونه شيخًا من شيوخ العراق ويذكّره فيه بالنخوة والمروءة، ويبيّن له فضائل البصرة وأنها أساس جميع العلوم، وأنه ينبغي نجدتها ونجدة أهلها، ولكن بعد أخذها وهتكها تحذّر معاونة ابن شاوي لأهلها، فلما تملك رئيس العرضي البصرة، طمعت نفسه لأن يغزوا المنتفق وأغراه شؤمه لذلك، فلما خرج من البصرة ووصل إلى ديار المنتفق اتفق أن قابله ثلاثون فارسًا من فرسان المنتفق اتفاقًا فنشب بينهم القتال وصبر الثلاثون فارسًا صبر الكرام، فكانت الهزيمة على جيش العجم وذلك في موضع يسمى النخيلة قريبًا من

الفرات، فردّ الله كيد العجم في [٣] نحرهم، حيث خذلهم الله بثلاثين فارسًا، ثم إن العجمي رجع إلى البصرة وعبر جيشًا أكبر من الأول وأميره محمد علي خان المشهود له بالشجاعة وعزم على غزو المنتفق ثانيًا ليغسل عنه العار الأول، وكان مع العجم قبيلة كعب الروافض.

فلما التقى الجمعان أراد الصلح ثوين وثامر، ولكن العجمي أبا الصلح واشترط شروطًا تأباها شيم العرب، فثاني يوم نشبت الحرب بين الفريقين من الصبح إلى المساء وصارت مقتلة لم يسمع بمثلها، وكانت الهزيمة في آخر النهار على العجم، وقتل أمير جيش العجم محمد خان وأكثر العجم ماتوا غرقًا لأنهم لما انهزموا فرّوا إلى الفرات ونزلوا في السفن وملاؤها حتى ثقلت وغرقت والعجم لا يعرفون السباحة، وغنم العرب مغنمًا لم يسمع بمثله لأن العجم كانوا متمولين من أموال أهل البصرة، ووفدت الشعراء ثويني للتهنئة خصوصًا بقتل محمد علي خان، وممن شهد هذه الواقعة وأبدى من البسالة غايتها حمود بن ثامر ومحمد بن عبد العزيز بن مغامس وهذه الواقعة التي أعزّ الله فيها العرب وقعت سنة، فلما قتل عمر باشا وتولى مصطفى باشا ظهر أنه جبان ولا تدبير له وعصى عليه عبد الله باشا وخرّب جملة قرى بغداد وكثر التشكي في حقه، وفي إهماله الأمور، فأرسلت الدولة عزله وولوا بدله عبدي باشا، وتمادى عبد الله باشا في الخروج والطغيان إلى أنْ بلغ السلطان استيلاء العجم على البصرة بعد مضي سنتين من أخذها فغضب السلطان عبد الحميد غضبًا شديدًا، وزاد غضبه بقتل عمر باشا بأمر مزوّر على السلطان مكذوب عليه فأمر في الحال بقتل مصطفى باشا، وأرسل فرمانًا بعزل عبدي باشا عن وزارة بغداد وتوليه عبد الله على بغداد، وأمره في الحال بتجهيز عساكر إلى البصرة لإخراج العدو الرافضي منها ووَاعده السلطان بأنه سيمده بالعساكر وبالأموال.

فأما عبد الله باشا فإنه اشتغل بلذاته وشهواته، وكان شرهًا على اتّباع شهواته، وأهمل أمور الحكومة، وفوّض الأمر إلى وكيله عجم محمد العجمي وعجم محمد هذا لم يكن فيه وصف يحمد أبدًا وأهله من سَفَلَةِ الناس وأطرافها، مع ما فيه من سوء السيرة والسريرة وأصله جاء من بلاد العجم هو وأمه وأختاه، وهو أمرد جميل الصورة، فصار إخوته يرقصْنَ في المحافل، وهو أيضًا يرقص ويزمّر ويطبل، لكنْ ساعدتْه المقادير إلى أن صار [٤] من صدور بغداد كما قال الشاعر: قدّمتهم أعجازهم للصدور، فانهمك على أكل الرشا ونوّع في المظالم والنشامة إلى منتهاها حتى هرب أكثر تجار بغداد من ظلمه ومغارمه.

وأصل من رقى هذا اللئيم هو عمر باشا فجرت رذائله عليه حتى عزل عمر باشا وقتل، ففرح الناس من خلاصهم من شرّ هذا الوغد إلاّ أنه لما قرّبه أيضًا عبد الله باشا ازداد غمُّ الناس أكثر من الأول خصوصًا حيث ولاه خازن داريته زاد طغيانه، والباشا غارق في بحر الجهالة وكثر الحجّاب حتى أنه لما ورد من السلطان خزائن لصرفها في تجهيز العساكر لإخراج الروافض من البصرة تحايل عجم محمد وأظهر مصاريف لتلك الخزائن، وتلك المصاريف هي صورية، وأما في الباطن فأغلب تلك الخزائن اختصاصها لنفسه عجم محمد وأظهر للباشا أنه أصرفها في لوازم الحرب، وصدّقه الباشا لغفلته وبلاهته وكثرة حجابه، وانهماكه على لذاته وشرابه، وكتب الخازندار على لسان الوزير كتابًا إلى الدولة العلية بأن العساكر العجم رحلوا عن البصرة واستلمناها والحمد لله على ذلك، والحال أن الأمر كذب محض، ثم أن حسن باشا والي كركوك أرسلت له الدولة أيضًا أوامر بأن يساعد عساكر عبد الله باشا، فجرّد عساكره وتوجّه إلى قريب بغداد لكن لما وقف على حقيقة الأمر وأن عجم محمد لا زال يغشُّ الوزير،

والوزيرُ في غفلاته، وأنه ليس منفصلاً عجم محمد استخلاص البصرة في أيدي الروافض تجهّز بنفسه حسن باشا وجاهد في العجم بمفرده ومعه عساكره، وطلب المدد من عبد الله باشا، فلم يمده لما ألقاه عجم محمد من الدسيسة بينهما ومن العداوة التي هي من محض افترآت عجم محمد.

فلما لم يَرَ من الوزير الإمداد رجع عن القتال لكونه مأمورًا من الدولة العليّة باتباع إيراد الوزير عبد الله باشا ولما أبطأ خبر فتح البصرة عن السلطان ظنّ أن عبد الله باشا إما جَبُنَ وإما خان ولام على من مدحه حتى ولّاه وزارة بغداد، وهو سليم باشا، ودام معاقبته، فتخلص سليم باشا وقال للسلطان: إن أرسلتني إلى العراق فما أرجع إلاّ بمفاتيح البصرة، إلاّ أن يحول الموت بيني وبينها، فتوجّه ووصل إلى بغداد، وفرح الناسُ به فرحًا جمًّا، وظنّوا فيه الخير فما شعروا إلاّ وعجم محمد التفّ به التفاف السير بالنعل، وتبيّن أنه أفسق من عجم محمد، وانعكف الجميع على الرقص والخمر [٥] والفسوق والفجور، واللواط، وترك الجهاد، فحينئذٍ جزم أهل العراق بأن البصرة لا تفتح إلى يوم القيامة، ما دام رجال الدولة بهذه الأخلاق، فلما رأى عجم محمد غباوة عبد الله باشا، وبلادة سليم باشا، طمحت نفسه لوزارة بغداد، بمساعدة شاه عجم باطنًا، فأرسل كريم خان وباطنه على هذا الأمر فزحفت حينئذٍ عساكر العجم طالبة بغداد، وكل هذا ولم يفهم المغفل سليم باشا، ولا الأبله عبد الله باشا، مقاصد هذا الغدار الخائن عجم محمد، ولا زالا يفهمان منه الصداقة التامة لهما، لكن بعدما بلغ السيل الذي تنبّه سليم باشا لمقاصد هذا الخبيث عجم محمد. وفكّر في الخلاص ولات حين مناص، فأرسل بعض العساكر إلى الحدود لصدّ جيش العجم وأختار من طرفه محمد بن عبد الله بن شاوي الحميري ليكون سفيرًا بينه وبين كريم خان، فسافر محمد بن شاوي ليعقد الصلح في شيراز بين الباشا وبين العجم.

فلما وصل إلى شيراز تذاكر مع كريم خان الزندوي في جملة مسائل، منها درّ البصرة وفك أسراها وأعيانها وحذّره من عاقبة بطش الدولة العثمانية وأن لها عتابًا أليمًا إذا التفتت إلى عقاب بعض الجهات، فلم يلتفت العجمي لقوله، ولا أجابه لسؤاله فرجع ابن شاوي إلى بغداد خائبًا، فلما قرب من بغداد بلغه خبر وفاة عبد الله باشا سنة، فدخل بغداد والفتنة مضطرمة بين أهل الجهة الشرقية وأهل الجهة الغربية، وكادت البلدة تخرب من كثرة الضرب والقتل، وذلك أن عجم محمد مدّ للوزارة عنقه وساعده سليم باشا وقام من الجانب الغربي حسن باشا طالبًا للوزارة ومعه عسكره وأعوانه.

فلما رأى محمد بن شاوي شدّة الفتنة تجنب الفئتين ولم يبرز رسالة عبد الله باشا لأحدهما بل أبقاها بختمها فلذلك رضي به الفريقان أن يكون حكمًا بينهما فاقتضى رأيه أن يرسل إسماعيل بيك ليعقد الصلح بين عجم محمد وبين حسن باشا ويجعل بينهما هدنة إلى أن يأتي أمر الدولة العلية يجري العمل، فسافر إسماعيل بيك إلى حسن باشا والي كركوك وأخبره بما اتفق عليه رأي محمد بن شاوي وغيره من أعيان بغداد فرضي بذلك حسن باشا، ولكن عجم محمد نكث لما في باطنه من الغش فحينئذٍ سعى محمد بن شاوي حتى حرّك أهل نجد على أن يدخلوا بينهما بأن الذي لم يرض [٦] بالهدنة فيكون أهل نجد عليه فسكنت الفتنة فبعد مدّة شهرين جاء أمر السلطنة بتولية حسن باشا وزارة بغداد وبالمحاسبة عجم محمد فيما أكله أول [. . .][1] وفيما تسبب فيه من إهلاك أموال الدولة والرعية.

فحينئذٍ استتر عجم محمد وحاول الهرب، فلما بلغ محمد بن شاوي

---

(١) كلمة غير مفهومة.

أن عجم محمد يريد الهرب والنجاة أرسل من طرفه عسكرًا للمحافظة عليه، فتكفّله أهل الميدان لكونه من أهل حارتهم وحرسوه بحرس من طرفهم إلى أن يحضر الوزير الجديد حسن باشا والي كركوك فلما وصل الوزير حسن باشا إلى بغداد فبعد يومين انفلت عجم محمد وهرب واتفق مع محمد بن خليل رئيس اللآونة، وجدد معه المعاهدة على العصيان وتخريب القرى والبلدان.

فأما عجم محمد فقد جاهر بالمخالفة وسمّى نفسه محمد باشا، وكذلك سمّى نفسه محمد باشا بن خليل، وشنّوا الغارات وقطعوا السبل، وأوقدوا نيران الفتنة، فلما رأى حسن باشا الوزير أن نيران الفتنة تزيد يومًا فيومًا أرسل محمد بن شاوي إلى أحمد باشا الكردي يستنجده، فجرّد أحمد باشا عساكره وتوجّ(1) إلى بغداد إلى أنّ المنية اخترمته في الطريق، لكن في تلك المدّة انخزل بعض اللآونة عن الانضمام إلى العصاة ورجعوا إلى الوزير فعفى عنهم وأكرمهم وصاروا من حزبه، وولّى عليهم خالد باشا ووصله بالمال، وأرسلهم إلى الحلة هذا، ومع أن الوزير أكرمهم وعفى عنهم إلاّ أنه لا يأمن بوائقهم في الباطن، وهذا يكون الجاذم.

ولما زادت الفتنة وكثر تخريب القرى من عجم محمد أرسل الوزير محمد بن شاوي إلى آل عبيد الحميري لينجدوه فامتثلوا أمره وأنجدوه بخيلهم ورَجْلهم، ولم بلغ الوزير إقبالهم وقرّبهم من بغداد أخرج كتخداه عثمان بيك إلى معاونتهم، فلما شعر محمد بن خليل بخروج الكتخدا أسرع وفصل بينه وبين آل حمير، وانتشر الحرب بين الكتخدا عثمان بيك، وبين محمد بن خليل، وخان بعض رجال الكتخدا، ومالوا مع ابن خليل ومع ذلك فالنصرة لكتخدا عثمان بيك، ورجع إلى بغداد قبل الغروب، ولم يجتمع بعرب حمير، ثم إن الوزير أرسل يطلب المعاونة من محمود باشا الكردي أخي محمد(2) باشا

(1) وتوجه

(2) لعله نفس الاداسمه احمد باشا الكردي

المتوفى، فأنجده محمود باشا بخيله ورجله، فحينئذٍ تقوت شوكة الباشا فخرج هو وعسكره ومحمد بن شاوي وعربه [٧]، آل عبيد الحميري، ومحمود باشا وأكراده لمقاتلة الشقي الطاغي عجم محمد ومن معه من العصاة، ففي أثناء سفر الباشا ومن معه التقى مع طليعة من العصاة، فنشب القتال بينهم فانهزمت الطليعة، وقتل أكثرها، فلما سمع بذلك عجم محمد وابن خليل فرّوا هاربين بمن معهما إلى البندنيج فقفاهم عسكر الباشا فبعد يومين وهم يجدّون في أثرهم التقوا معهم ونشب القتال بينهم، وكانت الهزيمة على عجم محمد ومن معه، وقتل أكثرهم، وتشتتوا شذر مذر، وأسر منهم ثلاثمائة.

هذا وأما سليم باشا المتقدم ذكره فانخزل وفرّ من بغداد، ولما وصل ديار بكر بلغ السلطان ما فعله من المفاسد، فأمر السلطان عبد الحميد بنهب أمواله وأعطاها إلى حسن باشا والي بغداد وحبسه في قلعة هناك إلى آخر عمره، وأمر أيضًا بنهب داره التي في إسلامبول وأخذها وأعطاها الشيخ الإسلام لكونها من أحسن دور إسلامبول ثم بعد أيام جاء الخبر بقتل سليم باشا، وهكذا عاقبة أهل الخيانة خصوصًا وقد حلّ عليه شؤم عجم محمد ومصاحبته وعاقبة المناكر التي [. . .][1] علينا.

وممن توفي في هذه السنة وهي سنة اثنان وتسعون ومائة وألف، العالم النحرير بقية السلف صبغة الله بن إبراهيم الحيدري الحسيني قرأ العلم في بلدته ماوران على والده، ثم دخل وأخذ عن العلاّمة زين الدين المهكاوي، والإمام محمد بن شروين، والمنلا شيخ الكردي المدني في المدينة المنورة، والعلاّمة عبد الملك القصاص في مكة، ونقل عنه علم الحديث، وهو عن الشيخ أحمد بن حجر المكي، ولما تم جميع العلوم

---

(١) كلمة غير مفهومة.

في بلدته ماوران جذبته الندرة فاستوطن بغداد ونشر فيها علومه، وألّف حاشية تفسير الفاتحة للبيضاوي، ولقد أبدع وأجاد فيها، كتب فيها من المباحث والاختراعات، وأما في الشعر والنثر فله اليد الطولى، ثم إنّ البغاة بعد الهزيمة صمموا على العود إلى القتال، وكان ابن خليل وعجم محمد في لورستان عند الوالي زكي خان، الذي آلت إليه مملكة العجم بعد كريم خان سنة.

وقد كان كريم خان أرسل أخاه صادق خان لحفاظة البصرة، فلما وصل إليها جاءه خبر وفاة أخيه كريم خان في شيراز وتولية زكي خان بدله، فوقع صادق خان في حيرة خوفًا من وزير بغداد، وخوفًا من زكي خان [٨]، لأن الأمراء والملوك كانوا زمن التبربر والتوحش إذا مات أو عزل أحدهم وتولّى بدله غيره، أول ما يسعىٰ الجديد في إهلاك من كان ينتسب إلى سلفه.

على ذلك خرج صادق خان من البصرة بعساكره قاصدًا شيراز ليملكها ويصون دمه، فلما بلغ الوزير خروج عساكر العجم من البصرة حالاً أرسل إليها نعمان بيك متسلمًا عليها، فسافر من بغداد ودخل البصرة بلا حربٍ ولا ضرب وتسلمها ونفّذ فيها أوامره، وطهّرها من الرفض وأهله، ولما مات كريم خان وتولى زكي خان بعده أطلق سليمان بيك وأسرىٰ البصرة، ولما فك الأسر عنه أرسله واليًا على البصرة، فخرج من شيراز، ولما وصل إلى الحويزة، راسل أهل البصرة في أن يكون واليًا عليهم فوافقوه، ولكن أبى ذلك نعمان بيك المتسلم وثامر شيخ المنتفق فبقي في الحويزة منتظرًا للفرج لأنه كان لا يحب الفتن فلم يلبث إلاَّ قليلاً حتى جاء الفرج بموت ثامر أغزى[١] عرب الخزاعل، فأصيب برمح قتله، فحينئذٍ أرسل سليمان بيك إلى حسن باشا والي بغداد يطلب منه ولاية البصرة، وأنه هو الذي كابد فيها المشاق زمن الحصار، وكان سليمان بيك

[١] غزى

من الدهاء على جانب عظيم، ولما لسليمان بيك من المآثر الجليلة في البصرة طلبه ثويني بن عبد الله إلى الدخول في البصرة، فما لبث بها إلاَّ قليلاً حتى جاء البشير بفرمان الدولة بأنه واليها والمتصرف فيها بلا منازع لأنه كان كاتب الدولة في هذا الشأن قبلاً بغير علم حسن باشا.

ثم إنّ أهل بغداد نقموا على وزيرهم حسن باشا لعدم أهليته للولاية، وأخرجوه من بلدهم مطرودًا لما ترتّب على وجوده من كثرة طغيان المفسدين حول بغداد، وهم محمد خليل، وعجم محمد، فلما خرج ووصل إلى ديار بكر أصابه مرض وتوفّي هناك، فمدّة ولايته على بغداد سبعة عشر شهرًا لا غير، فلما أخرجوه من بغداد ظلّت شاغرة بلا والي، إنما اتفق أعيان بغداد أن ولّوا عليهم إسماعيل بيك يطيعون أمره ونهيه إلى أن يحضر من الدولة أمرٌ، فيكون العمل على مقتضاه، فلما ورد الخبر بوفاة حسن باشا، أرسلت الدولة فرمانًا إلى سليمان بيك والي البصرة أن يكون والي بغداد والبصرة وشهرزور في يوم ١٥ شوال سنة ١١٩٣هـ ثلاث وتسعين ومائة وألف، وأرسلوا أمرًا آخر إلى سليمان باشا ابن أمين باشا الموصلي أن يكون قائمًا على بغداد إلى أن يرد سليمان باشا [٩] والي البصرة إلى بغداد ويستلمها، فسافر من البصرة سليمان باشا قاصدًا محل ولايته بغداد، وصحبه في سفره خدمة له ثويني بن عبد الله، وجملة من أعيان البصرة، وأعيان الزبير، ولما وصل إلى العرجا من أرض المنتفق لقيه الكتخدا إسماعيل بيك لأجل التهنئة فما كان من الباشا إلاَّ أنه أمر بضرب عنقه لأمور كان ينقمها عليه وقيّد خدامه بالحديد، ونصب على البصرة رجلاً اسمه سليمان وأصحبه صاحب مهره أحمد الزكي، ثم سافر، فلما وصل كربلاء استأذن منه ثويني في الرجوع إلى وطنه فأذن له، ولما وصل الحلة لاقاه سليمان بن عبد الله بن شاوي أمير حمير فأكرمه الباشا وبجّله

ولما وصل المسعودي قابله وكيله سليمان باشا ابن أمين باشا الموصلي الذي سبق أن السلطان جعله قائمًا مقامه ومعه كبار بغداد وعلمائها، فعزل نعمان أفندي عن الكتخدائية وولّى بدله عبد الله أفندي لأمور سياسية، وأذن لسليمان باشا الموصلي في أن يرجع إلى بلده الموصل، فبعد يومين ركب وتوجّه إلى بلده مكرمًا مبجلاً، وبعد ليلة قدم محمد بن خليل للإفساد والتخريب في قرى بغداد كعادته، فخرج لمحاربته عثمان بيك ابن أمير بابان، ومعه خمسمائة خيّال فانتشب بينهم القتال، فكانت الهزيمة على عسكر الطاغي ابن خليل فهزمت وتشتتوا، وقتل محمد بن خليل رئيس اللآونة وأراح الله العباد والبلاد منه ومن شرّه وأتى برأسه إلى الوزير فأكرم الوزير عثمان بيك بما يليق لأمثاله، فحينئذٍ صفا الوقت لسليمان باشا لعدم المعارض ودانت له العراق بحذافيرها فكان دخوله بغداد في ربيع الأول سنة ١١٩٤هـ أربع وتسعين ومائة وألف فما لبث إلاّ قليلاً حتى عصا وبغى وخرج عليه حمد بن حمود أمير خزاعة فأنذره الوزير وهدده ونصحه، فلم يزد إلاّ طغيانًا، فغزاه الوزير بعسكره في بلدة الحسكة، وعزله الباشا وولى بدله محسن بن محمد على إمارة خزاعة.

فلما وصل الباشا غربي الفرات مقابل الديوانية خاف من سطوته قبائل خزاعة فأغرقوا الأراضي بالمياه لتكون الأهوار لهم معقلاً وحصنًا فاهتم الوزير بسدّ موارد تلك [١٠] المياه فسدّها وباشر الشغل في بعض الأحيان بنفسه فلما تمّ سدّها في شهرين خاف منه جميع قبائل خزاعة فندم حمود وأرسل النساء والأطفال يشفعن له عند الباشا فقبلهم وعفى عنه لما جبل الباشا عليه من حب العفو، ثم لما عفى عنه ردّه إلى المشيخة كما كان، واستوفى منه الخراج كاملاً وهذه الغزوة كانت في سنة ١١٩٥هـ خمسين وتسعين ومائة وألف. وهي السنة الثامنة من ولادة المترجم، وبعدما تمم غزاه[١] رجع إلى بغداد.

[١] غزاه

وفي سنة ١١٩٦هـ السادسة والتسعين ومائة وألف: عرض للوزير ما كدّر خاطره، وهو أن أمير بابان عثمان بيك عصا على الباشا فلزم الحال لغزوه.

فبينما هو مصمم على الغزو إذ ورد عليه من ديار بكر ابن وائل عثمان بيك كتخدا حسن باشا فأعطاه قصبة البندنيج ليستغلها وبعدما أقام فيها مدة استثقلها ورجع يطلب غيرها فولاه الوزير مستلمية كركوك، فما زال من دخل كركوك يراسله عثمان بيك متصرف سنجاغ ويحثه على العصيان والخروج على الباشا ولا زال يوسوس ذلك الإبليس حتى أغواه، واجتمع بعثمان بيك في سنجاغ وأظهر العصيان وكفران النعمة ظنًا منه أنه بالعصيان ينال منصبه الأول ثم انضم إليهما محمود باشا والي بابان، وأظهر الجميع العصيان، فاخطر الوزير للخروج إليهم ومحاربتهم، فخرج قاصدًا محاربة الأكراد، ووصل كركوك ومعه العساكر، فكانت من الأكراد من يصلح لولاية بابان وعزل واليها وسار قاصدًا محاربتهم، فلما وصل لمحاذاتهم ورد عليه حسن بن خالد بن سليمان بمن معه من قومه فأكرمه الباشا وأحسن قراه وعزل عمه محمود باشا عن ولاية بابان، ولّى بدله حسن بن خالد عليها فلما سمع محمود بعزله تندّم على ما فرّط منه، ثم إن الباشا أيضًا ولى محمود بن نمر على كوى سنجاغ واده حرير فندم محمود باشا وتواقع على الباشا بكل أعيان الأكراد وبجملة من العلماء أن يردّ عليه مرتبته، فقبله الوزير بشرط إرسال بعض ولده رهنًا، وإبعاد الكتخدا عثمان عن تلك الديار وأداء ما عليه من الخراج، وأن لا يعود إلى العصيان والخروج أبدًا، وأخذ منه عهدًا على ذلك، فردّ عليه بابان إلاّ كوى وحرد، والذي كان الواسطة بين

الوزير، وبين محمود باشا هو الشيخ سليمان [١١] بن عبد الله بن شاوي.

ثم إن محمود باشا وفى بما التزمه وأبعد الكتخدا عثمان عنه، وبعث ابنه سليمان رهنًا مع إحدى نسائه، فلما رجع الوزير إلى بغداد نقض محمود باشا العهد ولم يفِ بالخراج وأزمع على حرب الوزير، وحارب سنجاغ وحاصر ابن نمر أميرها، فلما بلغ ذلك الخبر الوزير أرسل مددًا من طرفه وعسكرًا لابن نمر وأصحب في العسكر خالد بيك ومصطفى بيك، فلما وصلوا كركوك خاف متصرف بابان منهم وتندّم على ما فعل وطلب الأمان والعفو من الباشا، وأن يمنحه الباشا من مكارمه لواء كور وحرير فأجابه الوزير وعفى عنه، ولكن اشترط عليه أن يعطي اللواءين إبراهيم بن أحمد باشا لابنه عثمان بيك فامتثل الأمر فحينئذٍ خرج بن نمر ورجع إلى بغداد.

وفي السنة السابعة والتسعين ومائة وألف عاد متصرف بابان على ما جبل عليه من الخروج والعصيان وما غرّه إلاّ حلم الباشا عليه فغضب الوزير غضبًا شديدًا وعزم على إعدام هذا الرجل وتخريب بيته، فسافر الباشا بالعساكر إلى أن نزل كركوك، وطلب أمير كوى وحرير فألبسه خلعة بابان، ثم سافر الوزير قاصدًا ذلك الباغي في الدرنبد[١]، فلما التقى العسكران ونشب الحرب بينهما كانت الهزيمة على عسكر الباغي وأكثر من خذله عساكره، ففرّ إلى العجم فرجع الوزير إلى بغداد ومعه إبراهيم باشا والي بابان.

[١] الدربند

وفي السنة الحادية عشر من مولد المترجم وهي سنة ١١٩٨هـ الثامنة والتسعون ومائة وألف: قتل محمود باشا لما حارب أمراء العجم

فنفر منهم عثمان باشا وانهزم ورجع إلى والي بغداد وطلب منه العفو فمنحه إياه وأقطعه بعض قرى لينتفع بها بقرب بغداد، وفي تلك السنة ارتكب العصيان والخروج محسن الخزاعي، فأنذره الوزير فلم ينفعه النذر، فحاربه الوزير، واشتبك العسكران فكانت الهزيمة على محسن وربعه، وتشتتوا شذر مذر، ونهبت أموالهم وانتهكت حرماتهم فحينئذٍ ألبس الوزير حمد بن حمود خلعة إمارة الشامية علاوة على مشيخة الجزيرة (١)، ورجع الوزير إلى بغداد محل عزّه وخلافته.

(١) الجزيرة.

وأما السنة الثانية عشر لولادة المترجم، وهي السنة ١١٩٩هـ (التاسعة والتسعون ومائة وألف): وفيها ورد بغداد المشير داود باشا [١٢] بعد أن تربّى في بلده إحدى عشرة سنة، وفيها عصىٰ وخرج على الوزير حمد بن محمود الخزاعي، وما غرّه إلاّ حلم الوزير وإكرامه له، فكفر النعمتين ونسي إلباسه الرياستين، فجرد عليه الباشا العساكر ووصله إلى أرض الخزاعل فتحصّن حمد بن حمود بالمياه كما هي عادة عرب تلك الديار تخلوها من الجبال والقلاع، فما شعر عسكر الوزير إلاّ والمياه سالت عليهم أيضًا، وذلك أن حمد بن حمود كسر عليهم السدود وهم لا يشعرون، فكادت المياه تُغرق العساكر، لكن نباهة هذا الوزير استدرك الأمر ونقل العساكر إلى أماكن عالية لتسلم من المياه، ثم سافر الوزير وقصد الحسكة يتحصن فيها العساكر، ودبّر أمره في سدّ منبع هذه المياه من الفرات، فسدّه سدًّا محكمًا فبينما هو عازم على محاربة الأشقياء إلاّ وبلغه أن عجم محمد جاء وانضم إليه عساكر حمد بن حمود ومن معه، فتشوش خاطر الوزير لذلك، ولكن وصول هذا الخبر إليه، كان حمد بن حمود أرسل إلى الوزير يطلب الصالح، وكان الوزير ممتنعًا، فلما بلغه

وصول عجم محمد رضي بالصلح وأبقى حمد بن حمود على إمارته، ورجع إلى بغداد.

وفي سنة ١٢٠٠هـ (مائتين بعد الألف): خرج من بغداد سليمان بن عبد الله بن شاوي فارًا من الوزير لأن بعض الناس حسدوه وملؤوا صدر الوزير عليه، فاعترى ابن شاوي الأوهام خوفًا من الوزير، فأراد حسّاده إبعاده عن قرب الوزير، إذ لو لم يبعدوه ما سادوا هذا.

ومن الأسباب المؤدية إلى خروج ذلك الأمير ومفارقته، منادمة الوزير أنه تخاصم مع المهردار لأنه يعرف المهردار صغيرًا، وقد قيل من عرفك صغيرًا ما وقرك كبيرًا، مع أنه كان ينبغي له أن يراعيه ويداهنه مراعاة لولي نعمته الوزير، ولكن إذا جاء القدر عمى البصر. فما أخرجه إلى الخروج والشقاء بعد الترب والنعيم، وهل يتصور أن هذا الأمير الحميري يَسِم نفسه بِسِمَة البغاة، هذا ومن عصى شاوي صار يرتكب المساوىء فغضب الباشا وأرسل عليه إبراهيم باشا وأحمد بيك المهردار ومعهم عسكر الأكراد، فلما علم ابن شاوي بقرب العسكر انتقل إلى تكريت، فلم يطق بها المقام من الخوف، ففرّ إلى الخابور، وترك أمواله [١٣] غنيمة للعسكر، فرجع العسكر إلى بغداد فلمودة الباشا لأحمد بيك المهردار جعله كتخداه لكياسته ودهائه.

وفي ذلك العام وقع القحط الشديد الذي أكلت الناس فيه الكلاب والموتى والجلود، وأكلوا الدم وأرادوا خلع الوزير، وظنّوا أنّ هذا القحط من شؤمه مع أنه من عند الله لعدم الأمطار، ورفعوا علم الشيخ عبد القادر الجيلي(١)، وساحوا في الأسواق وحرّكوا العامة والأوباش والغوغاء لخلع

الباشا، فلما سمع الباشا بهذه الحركة أرسل عليهم بعض عساكر، فقتلوا بعض المفسدين، ونفوا البعض، فصلح الباقي وخمدت الفتنة.

وفي سنة ١٢٠١هـ (إحدى ومائتين وألف): ورد سليمان بن شاوي من الخابور ومعه جنود وأوباش متجمعة فقصد بذلك التخريب والإفساد، فخرج إليه الوزير بعساكره وجنوده، والتقى الجمعان في الفلوجة، واشتبك القتال بين الفريقين، وتطاعنت الفرسان وحمي الوطيس، فكانت الهزيمة على عسكر الباشا والي بغداد، وأُسر من جماعته خالد بيك كتخدا البوابين، ومحمود باشا ابن نمر باشا. فأما محمود باشا فرد عليه سلبه ابن شاوي وأذن له في الانصراف. وأما خالد باشا فأسره معه مقيدًا، وبعد ذلك طمعت نفس ابن شاوي إلى أن غزا على نفس بغداد حتى وصل إلى الكاظم ولولا عرب عقيل لأُخذ سليمان باشا أسيرًا، ولكن عقيل أبدوا في ذلك اليوم من البسالة والشجاعة ما يليق بهم، وحاموا عن بغداد محاماة الأسد عن زبيته فشكرهم الباشا على ذلك.

وأما ابن شاوي نفر هاربًا وانشقت من جماعته العصى وندم على ما قدّم، وطلب الأمان من الباشا فمنحه إياه، لكنه لم يرجع عن غيّه بل عاد إلى البادية لجميع الأعراب وللطغيان والفساد، فتوجه إلى الدجيل، ثم إلى الشامية، ثم إلى الأبيرة، فلما لم يجده شيئًا قصد المنتفق فالتجأ به إلى ثويني بن عبد الله فساعده وأعانه وانضم إليه حمد بن حمود الخزاعي بقبيلته فأناخ الجميع على البصرة وملكوها ونهبوها وأسلبوا أهلها وأسروا متسلمها إبراهيم أفندي ثم نفوه إلى مسقط، وكان هذا المتسلم أفسق من على وجه الأرض في شرهه على الزنا واللواط والسُكر، [١٤] وكان يمضي جميع أوقاته في رقص الأولاد والنساء والسكر والغناء، فأراه الله

عاقبة أفعاله، فلما بلغ الوزير أخذ البصرة وهتكها وأسر المتسلم ومنع ثويني من الخراج، بل حتى أن ثوينًا راسل الدولة وطلب منهم أن يجعلوه وزير بغداد أصالة فحينئذٍ اغتاظ الباشا وأرسل إلى متصرف بابان وكوى وحرير ومن الأكراد إبراهيم باشا والي متصرف باجلان عبد الفتاح أفندي، على أن يمدُّوه بجميع ما يمكنهم من العساكر الأكراد، إلا أنّه لما أبطؤوا عليه عزل إبراهيم باشا ونصب مكانه عثمان باشا بن محمود باشا، ومكان الآخر عبد القادر أفندي، فأمدّاه بألفي خيّال من شجعان الأكراد، فلما تمت قوته شرع أولاً في الغزو على خزاعة؛ لأن حمود بن ثامر بن سعدون خضع لطاعة الباشا، وجاء بقبيلته مددًا، فلما بلغ الوزير في أرض خزاعة أصحبه معه، وقاتلوا خزاعة، ورموهم بالبنادق، وفرقوا شملهم، وهرب عند ذلك حمد إلى المنتفق ثم توجه الباشا إلى المنتفق، وأقام ثلاثة أيام في أم العباس، وذلك في غرة محرم سنة ١٢٠٢هـ اثنين ومائتين وألف، فخرج ثويني بن عبد الله بعساكره صفوفًا صفوفًا ومعه الأطواب والخيل العراب، فنشب الحرب واشتد وحمي الوطيس، فكانت الهزيمة على عساكر المنتفق وولوا الفرار والباشا يتبعهم أسرًا وقتلاً، حتى أنه بنى من رؤوس القتلى ثلاث منابر، فلما صفى له الوقت ولّى على المنتفق حمود بن ثامر، وعلى البصرة مصطفى آغا الكردي وكان خازنداره، وبعد ذلك رجع الباشا إلى بغداد بعدما أرهب الأرض بخيله ورجله، وجعل في البصرة جملة من عسكره تسمى اللاونة، ورئيسهم إسماعيل آغا تقوية لمتسلم البصرة، وتأمينًا للسبل، وكان خروجه من بغداد الثاني عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٠١هـ ورجوعه فيها منصورًا ثمانية في ربيع الأول سنة ١٢٠٢هـ (اثنين ومائتين وألف).

وفي سنة ١٢٠٣هـ (ثلاث ومائتين وألف): طلب سليمان بن شاوي العفو من الباشا، فعفى عنه ورد عليه أملاكه وأمواله بشرطين:

١ ــ لا يدخل بغداد أبدًا،

٢ ــ وأن لا يعود إلى الفساد لا ظاهرًا ولا باطنًا.

وفي ذلك العام عصى متسلم البصرة مصطفى [١٥] آغا الكردي، وذلك لما بينه وبين الكتخدا من الضغائن، فأخذ مصطفى آغا الكردي يستميل عثمان باشا واللآونة بالأطماع. وكتب لثويني بن عبد الله ليساعده في هذه الأمنية، فلما قرب من أرض المنتفق أرسل للباشا بأن حمودًا لم يلق للمشيخة بل الأولى بها ثويني فأجابه الوزير وأرسل له خلعة المشيخة إلى ثويني، وكل هذه مسايرة من الباشا لمصطفى آغا، وتجاهل الباشا بأنه ما علم بأن مصطفى آغا خرج عن الطاعة، ولكن الباشا في هذه المدة مجتهد في جلب العساكر، وتمت عنده العساكر الشجعان، هذا ومصطفى آغا الكردي يجدُّ ويجتهد في إثارة الفتنة تارة بكاتب عثمان باشا، وتارة بكاتب أمير اللآونة الكردي الذي في الزنكباد ويغريهم على مساعدته، والوزير عالم بذلك لكنه يتغافل ويظهر الودّ لمصطفى آغا الكردي فكتب الباشا إلى كبير مراكب البصرة مصطفى بن حجازي بأنه إن تمكّن من قتل مصطفى آغا الكردي فلا يتوقف، فما تدري كيف شعر مصطفى آغا الكردي بهذا الخبر فتحذر بل جمع جماعة خفية، وهجم على مصطفى آغا الحجازي وقطع رأسه.

فحينما قتل مصطفى بن حجازي جاهر بالعصيان، وأخذ في التخريب والإفساد ظاهرًا، وعندما عزم الوزير على غزوه ورد كتاب من

سليمان بن شاوي إلى الوزير يشكره فيه على العفو والمسامحة فيما فرط منه، ويترجى الباشا في أن يرسل إلى ابن شاوي رجلاً عاقلاً مؤتمنًا من خاصته ليودعه سرًا يؤديه إلى الباشا، فأرسل إليه سليمان آغا معتمد كتخدا لفطنته وأمانته، فلما وصل الرسول إلى سليمان بن شاوي الحميري أخبره أن عثمان باشا متفق مع مصطفى آغا الكردي سرًا وأراه كتاب عثمان باشا إليه يعزمه على أن يكون على ما كان عليه من مساعدة المتسلم على أن يكون والي العراق فرجع الرسول إلى الباشا بكتاب سليمان الذي وصله من عثمان باشا، فلما رآه الوزير أخر السفر ليدبر أمره فأظهر لعثمان باشا المودّة الكاملة، وراسله وهاداه ومنّاه بالمواعيد فاغتر بمودة الباشا، فأرسل إليه الوزير كتخداه أحمد [١٦] أفندي ليطلبه إلى بغداد، فلما وصل بغداد أخذ الوزير يلاطفه، ويظهر له المحبة حتى إنه زوّجه أخت الكتخدا أحمد أفندي وترجاه وطلب منه المدد ليعينه بجملة من عساكره وأذن له في الرجوع إلى وطنه، فسافر وهو مطمئن قلبه من جهة الباشا وما درى أن الحبال له تفتل والمكر عليه يدبر، فبعدما رجع إلى وطنه انحلت عرى المعاهدين للمتسلم فحينئذٍ غزا الوزير المتسلم مصطفى آغا الكردي فدذ وصل العرجاء داخل الرعب ثويني وقبائله والمتسلم مصطفى آغا.

فأما ثويني فإنه فرّ إلى البراري والقفار، وأما المتسلم فهرب إلى الكويت فجدّ الباشا إلى أن وصل إلى البصرة وملكها وأقام بها متسلمًا الأمير عيسى الماردبني، وأقام شيخًا على المنتفق حمود بن ثامر، فرجع الباشا إلى بغداد، ودخلها سلخ رمضان، فلما استقر بها طلب عثمان باشا فأتاه وهو آمن، فلما أدخله الخزانة أراه خطه إلى سليمان بن شاوي، فلما رأى خطه بيده انذهل وعرق في عرق الخجل، فأعطاه الباشا السم، فلما

زاد مرضه أخرج إلى دار سعيد بيك الدفتردار، ففيها توفي ومشى في جنازته جميع الكبار حتى الكتخدا، وولي الباشا بدله إبراهيم باشا على بابان ومحمود باشا ابن... باشا على كوى وحرير وهكذا عاقبة الخيانة والغدر على أولياء النعم.

وفي هذه السنة ورد خبر بوفاة السلطان عبد الحميد خان بن السلطان أحمد خان، وكان شفوقًا على رعيته كريمًا محبًا للعلماء، حتى إن العلماء والطلبة زادوا في زمانه أكثر من جميع الأزمان، إلاّ أنه كان كعادة أسلافه غليظ الحجاب، فصارت أخبار ممالكه لا تصل إليه كما هي عليه في الواقع ونفس الأمر، ولهذا لما أخذ العجم البصرة جلست مدّة رجاله لا يعلمونه بذلك بل يموّهون عليه، وبكثرة الحجاب وغلظ الحجاب تخرّب أكثر الممالك وتهرم الدول وتزول؛ كما تحققنا ذلك في أخبار الدولة السابقة أنّك تجد الفاتح الأول منهم ليس له حجاب ولا زال خلفه يغلظون الحجاب إلى أن يصير الملك في آخر الأمر كطير في قفص محجورًا عليه، وعليه تنتقل الدولة إلى وزرائه كما رأينا ذلك في آخر[(١)] [١٧].

وكوى وحرير، فعاد إلى مقرّه وحكمه، وقبل وصوله إلى محله أرسل أخاه سليمان من قبله، فمذ سمع إبراهيم باشا بذلك أرسل أخاه عبد العزيز ليمنع سليمان من الدخول إلى أن يوصل أهله إلى ما منهم، وما أحسن في هذه الحركة، فإن عبد العزيز وسليمان التقيا على غير ميعاد وكل منهما طايش العقل، فوقعت بينهما مقتلة جُرح فيها عبد العزيز

---

(١) نقص صفحة كاملة في الأصل.

وأُسر، ولما سمع إبراهيم باشا فرّ إلى بلاد العجم وأرسل أخوه عبد العزيز مكبّلًا في السلاسل والأغلال إلى بغداد.

وفي السنة ١٢٠٥هـ (الخامسة بعد المائتين والألف): أطلق عبد العزيز من أسره عندما أتت خطوط أخيه إلى الوزير يطلبه العفو والأمان، فكتب إليه الوزير جوابًا وفيه العفو والأمان، وأرسل الجواب مع محمد بن عبد الله بن شاوي الحميري فتقدم به بالأمان إلى دار السلام، فأكرمه الوزير بالضيافة ومنحه بعض ضياع ليتتنع بها.

وفي هذه السنة دخل ثويني بن عبد الله على الباشا وطلب منه العفو عما صدر منه من التفريط، فمنحه إيّاه وسامحه وردّ عليه أملاكه، ولكن بعد أيام ورد عجم محمد من بلاد العجم ونزل على سليمان بن شاوي، فسمع به الباشا، فطلبه من ابن شاوي، وأن يرسله مقيّدًا إلى بغداد، فامتنع ابن شاوي من التسليم في ضيفه على عادة العرب، ففي الحال من الوزير الكتخدا أن يغزوا ابن شاوي ويأتي بهما مقيدين، فلما سمعا بالعسكر فرّ ابن شاوي وعجم محمد، فلا زال الكتخدا أحمد يقفو أثرهما ولما يلحقهما نهب جميع ما كان في محلهما من المال والنعم، ولما عتى تيمور الملي الكردي وعصى وزاد طغيانه وتخريبه للقرى، أمر السلطان سليم سليمان باشا والي بغداد لمحاربته فجهّز جيشًا وقصد بلاد الأكراد، فلما التقى الجيشان كانت الهزيمة على الملي وعسكره.

ولمّا دخلت السنة ١٢٠٦هـ (السادسة بعد المائتين والألف): سيّر عسكرًا ورئيسهم لطف الله أفندي لمحاربة الباقي من عسكر تيمور الملي، فلما نشب القتال بينهم كانت الهزيمة على عسكر الملّي أيضًا، وغنم

العسكر أموالهم، وقتل جملة عظيمة من [١٩] عسكر الملي وبعدما رجع الوزير منصور ألبس أخا تيمور إبراهيم بيك مكانه وسافر الباشا إلى ماردين فصلب اثنين من أتباع تيمور أحدهما يقال له حسن، والآخر يقال له حسين، وقتل جماعة أخرى من اليزيدية، ثم رجع بغداد في السابع والعشرين من ربيع الأول، وكان خروجه في شوال.

وفي سنة ١٢٠٨هـ (ثمان ومائتين وألف): عصى على الوزير محسن بن محمد، أمير خزاعة، ومنع الخراج فأرسل إليه الباشا عسكرًا جرارًا ومعهم الكتخدا أحمد، فلما التقى الجمعان أذعن محسن بن محمد للطاعة خوفًا من سفك الدماء وأدى الخراج كاملاً وأدى رهائن على أنه بعد الآن ما يرتكب العصيان فأخذ الكتخدا منه الخراج ورجع إلى بغداد مظفرًا، ولكن محسنًا بعدما رجع الكتخدا نقض العهد واعتدى وشرع في المخالفة فعزله الباشا عن مشيخة خزاعة وأقام بدله حمد بن حمود.

وفي السنة ١٢٠٩هـ (التاسعة بعد المائتين والألف): قتل سليمان بن عبد الله بن شاوي الحميري، فبكاه الشيخ، والسويدي، فتمه ابن يوسف الحربي وهو جدير بالرثاء لكرمه وشجاعته.

وفي السنة ١٢١٠هـ (العاشرة بعد المائتين والألف): توجّه الكتخدا أحمد بعسكر جرار إلى أرض خزاعة لعدم جريانهم على الطاعة فمذ أناخ بفنائهم رجع شيخها وطلب الأمان والعفو وأدى الخراج ورجع الكتخدا إلى بغداد فكان بينه وبين علي بيك الخازندار ضغائن فقتله علي الخازندار. وأقامه كتخداه، وهذا دليل على أن الباشا له رغبة في قتل الكتخدا أحمد حيث لم يعاقب قاتله.

وفي السنة ١٢١١هـ: نصب الباشا شيخًا على المنتفق ثويني بن عبد الله وعزل حمودًا، وفيها توفي شاه العجم محمد علي خان وتولى مكانه فتح علي خان.

وفي السنة ١٢١٢هـ [٢٠] (اثني عشر بعد المائتين والألف): غزا علي بيك الكتخدا أحمد[1] بن حمود، فمذ أناخ بساحته انهزم حمد بن حمود، فولّى علي بيك الكتخدا محسنًا إلى آل قايم على الشامية، ونصب سبتي بن محمد شيخ الجزيرة وألزمها بالخراج فتعهدا به، ورجع الكتخدا علي بيك إلى بغداد، وفيها عزل الوزير سليمان باشا عبد الرحمن باشا عن إمارة بابان ونصب مكانه ابن عمه إبراهيم بيك واليًا على بابان إلا كوى وحربر فما زالتا على حكم الأول، وبقي عبد الرحمن باشا في بغداد معاملاً بالإكرام والإعزاز، وفيها عزل علي بيك الكتخدا آل سعيد من زبيد لعصيانهم وارتكابهم الفساد، وفي مروره وصل إلى الجواز من ديار ربيعة، فولى عليهم شيخًا ورجع إلى بغداد بغنائم آل سعيد، وفيها قتل طُنَيْسٌ[2] ثويني بن عبد الله، فمات غريبًا شبيدًا، وسبب موته أنه لما طغى ابن سعود الخارجي وملك الحسا وانتزعها من شيخ بني خالد طمع في غيرها من بلاد المسلمين ليذبح أهلها كما ذبح أهل الحسا، أمر الباشا والي بغداد ثويني بن عبد الله أن يذهب لغزو هذا الطاغي بن سعود، فجمع جيوشه ثويني وسافر إلى نجد، فأرهبها وأدخل الخوف في قلب جميع أعرابها، حتى إنه دخل في طاعته، جملة من قبائل ابن سعود بدون حرب ولا ضرب وعاهدته جرائم قبائل العرب على مساعدته فما زال يسير بالكتاب والجنود إلى أن نزل على ما يسمى الشباك، وحالما نزل نصبت له خيمته

(١) حمد

(٢) في بعض المصادر اسمه طعيس
ابن بشر
الفاخري ص١٥٨

هناك صغيرة فجاءه طفيس والناس في أشغال النزول فطعنه بحربة فقتله فمسكوا طفيسًا وقتلوه، ولكن لا يثأر الأسد بالكلب وتشتت جيش المنتفق وكرّوا راجعين إلى العراق وانفلت عنهم معاهدوهم.

فلما بلغ الباشا هذا الخبر تأسف وولى على المنتفق حمود حاكمًا عليهم، وثويني هذا هو ابن عبد الله بن محمد بن مانع القرشي الهاشمي العلوي الشبيبي تولى مشيخة المنتفق كما تولاها أبوه وجدّه أجواد العرب والمشاهير وشجعانها، وله أيام مشهورة بين العرب أبدى فيها من الشجاعة ما فاق به عنترة، فمنها يوم دُبـيّ، وذلك [٢١] أن كعبًا غزوا أخاه صقرًا بجيش عرمرم، فلما التقى الجمعان، ونشب القتال بينهما تبين فيها ثويني، وكانت هزيمة كعب بسببه كما هو محقق عند سائر قبائل العرب، وبه زلّت قبيلة كعب الروافض، ومن أيام ثويني يوم ضَجْعَة وسببه أن عبد المحسن بن سرداح لما اشتاق إلى مشيخة بني خالد فرّ إلى ثويني لينجده ويساعده، وشيخ بني خالد إذْ ذاك سعدون بن عريعر، فلما علم ذلك جميع قبائله وصار يشن الغارات على ثويني وعربه، فصار بين القبلتين(١) الشر، فتواعدوا على يوم معلوم فالتقيا في أرض بني خالد، ونشب بينهما القتال وسال الدم مثل السيل واستمر الحرب أيامًا فكانت الهزيمة على قبائل سعدون، فهرب وتولى ثويني بيوته وأمواله، وأما سعدون فإنه طار مهزومًا إلى أن وصل إلى عبد العزيز بن سعود، فعاهده على نصرته، فصار قدومه عند ابن سعود يوم عيد لأنه حينئذٍ تيقن أنه سيملك الأحساء لما رجع ثويني لى داره أجمع عشائر بني خالد على أن يؤمروا عليهم داحس بن عريعر.

(١) القبيلتين

ومن أيام ثويني المشهورة يوم التنومة[1] قرية من قرى القصيم، وذلك أنه لما انتصر على بني خالد تطاول وغرّته نفسه أن يغزو نجدًا بحذافيرها، حتى ابن سعود، فجهز جيشًا جرارًا وقصد به نجدًا فهابته جميع العرب ولم يقدر أحد على مبارزته حتى ابن سعود، فإنه جبن واستكن في الدرعية، فلما أناخ ثويني في أرجاء نجد أوّل ما ابتدأ بحرب التنومة، وحاصرها إلى أن فتحها عنوة ونهب أهلها وهتكها ثم قتل إلى العراق، فوصل البصرة، فأخذه الغرور وحدّثته نفسه أن يملك العراق أجمع، فحاصر البصرة حتى ملكها، فكان هذا هو الباعث على إهلاكه، لأنه تحركت عليه الدولة العلية، وتنبّهت له وأمرت والي بغداد أن يوالي عليه المغازات، فلا زال يغزوه إلى أن صار من أمره ما ذكرناه سابقًا من عزله، وتشتيت حاله وتولية غيره، ثم الآن دعته منيته إلى أن يغزو نجدًا، فغزاها، فصار منيته على يد طعيس (العبد الأسود) وبعده آلت إمارة المنتفق إلى حمود [٢٢] بن ثامر بن سعود بن محمد بن مانع الشبيبي ابن أخي ثويني لأمه، وهو ابن عم له.

وحمود هذا من فرسان العرب ورجالاتها الموصوفين بالدهاء والأناة، وكان موسوسًا؛ حتى إنه قيل عنه أنه لا ينتقض وضوءه، ويتوضأ إلّا في سبع ساعات، فكان كثيرًا ما يصلي اليوم صلاة أمس، ومن مثالبه أنه كان لا يرضى إلّا برأيه، ومنها أنه كان كاتبه رافضيًا، فكان يضرُّ بأهل السنّة ويتصدهم بالمضرة عمدًا، ومن رشا هذا الكاتب قضا شغله، وإلّا

---

(١) لا فخر في فتح التنومة إذ هي قرية لا تعدّ إلّا اسمًا، فلما ضرب عن الإطناب أصرّ من وعدها ما رد وانتصر.

يعطل أشغال الناس ما أمكنه، ومنها رضاه بظلم قومه لرعيته، ومنها رضاه بكل مفسدة من كل باغ على ولاة الأمور، وعلى الدولة العثمانية، ومنها أنه لا يولي على كل قرية إلاّ أظلم أهلها وأفسدهم، ومنها أنه على غاية من الحقد، ومن محاسنه الشجاعة التي لا تكاد توجد في مخلوق في هذا العصر، وأظن أن الله جمع فيه شجاعة ألف رجل، وله أيام مشهورة بين العرب تبين فيها، منها يوم الرخيمة، وهو شاب في حياة والده وهو يوم السعدون ابن عرعر على ثامر ومنها يوم أبـي حلانة، وهو يوم للمنتفق على محمد علي خان الزندي كما ذكرناه قبلاً، ومنها يوم سفوان له على ثويني عمّه ومصطفى آغا الكردي متسلم البصرة، ومن أيامه يوم علواء ماء قريب من البصرة، ومن محاسنه إطعام الطعام حتى أن بعض الضيوف يقيم عنده أعوامًا، ولا يرى الضيف من خدمه ملالاً ولا سآمة على طوال المدة، ومنها ذكاءه المفرط وحفظه الجيد، ولمّا ابتلاه الله بالعمى ازدادت أبّهته واستمرّت حكومته من الثانية عشر إلى الثانية والأربعين.

في الخامس من صفر عزله الوزير المكرم المترجم داود باشا، وسنذكر سبب عزله في محله.

ومن وقائع السنة الثانية عشر بعد المائتين والألف أن سعود بن العزيز المبتدع غزا بني المنتفق، فصبّح القرية المعروفة بأم العباس، فقتل منها خلقًا كثيرًا ونهب وحرق ثم كرّ راجعًا إلى الدرعية، وحمود إذ ذاك كان في البادية، فلمّا بلغه الخبر جدّ في السير ليدركه فما أدركه، وفي رجوع ابن سعود أغار على بادية العراق، وكان مطلق بن محمد [٢٣] الجرباء نازلاً في بادية العراق، فلما صبّحهم سعود فرّ من فرّ وثبت من ثبت، وقاتل مطلق، وكان يكرّ على الفوارس كرير الأسد، فبينما هو يعدو

خلف ابن سعود إذ عثرت فرسه في غز فسقط هو والفرس، فهجمت عليه الفرسان حتى قتلوه، وكان قتله عند ابن سعود من أعظم الفتوحات.

ومطلق هذا من كرام العرب عريق النجار شريف النسب، وقبل هذه الواقعة صارت لمطلق مع ابن سعود واقعة أخرى قتل فيها ابنه مسلط، وبعد واقعة مسلط توجه إلى الشام وصحب أحمد باشا الجزار إلى البيت الحرام، ثم رجع إلى العراق عازمًا على أن لا يترك الجهاد مع الوهابية، فلا زال [. . .][1] الغزو والقتال إلى أن استشهد في هذه الواقعة.

وفي السنة ١٢١٣هـ (الثالثة عشر بعد المائتين والألف): غزا علي بيك الكتخدا بأمر الوزير سليمان باشا والي بغداد الحسا من البحرين بعدما تولّاها عبد العزيز بن سعود وبنى فيها القلاع المحكمة، وسام أهلها الخسف وخبرهم على اعتقاداته الفاسدة، وغزا مع علي بيك شيخ المنتفق حمود بن ثامر بن سعدون وبادية العراق، وعسكر عقيل وأميرهم إذ ذاك ناصر بن محمد الشبل، وغزا معهم فارس بن محمد الجرباء شيخ شمر ومعه قبائله، وأصحاب الوزير مع علي بيك الكتخدا محمد بن عبد الله بن شاوي الحميري، وغزا معهم أيضًا أهل الزبير القرية المعروفة، وأهل نجد أميرهم إبراهيم بن ثاقب بن وطبان، فسار العسكر إلى أن نزلوا في المبرز وحاصروا قلاع ابن سعود، ولم يقابل أحدًا من عسكر الكتخدا، ولا من العرب سوى عقيل، فأطاع غالب أهل الحسا من غير قتال، وفي خلالها غزا حمود على «سبيع»[2]، فقتل منهم وغنم إبلًا وشاة ومعه في تلك الغزاة فارس الجرباء وابن أخيه نيه بن قرنيس، ولما رجع حمود من تلك

---

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) سبيع: قبيلة معروفة ترجع إلى مضر.

الغزاة بالغنيمة علي الكتخدا تقوّى ساعد الكتخدا واجتهد في الرمي على القلاع، ولكن الأطواب لا تعمل في القلاع لصلابة طينتها، وهكذا غالب بلاد القصيم طينتها صلبة جدًا، والظاهر أن نصحاء الكتخدا خانوه وأوهموه أوهامًا فاسدة، حتى إنه فرّ [٢٤] هاربًا راجعًا إلى العراق، وذلك لأن الباشا صرف أموالاً جمّة على العرضي، والكتخدا أسلم أمورهُ لبعض الخَوَن فخانوه في الصرف وأكلوا أكثر الأموال، وصرفوا القليل، فلهذا عمدوه على الهرب لكي يتم ماعويهم، فلما أخذ في الفرار هو وعسكره وسائر أعراب العراق تبعه ابن سعود بعسكره ولحقه في محل يقال له ناج، ونزل ابن سعود في الحنا، فبينما الفريقان يتحاربان، إذ لانت شكيمة رؤساء العساكر للصلح، وصاروا يبكون للكتخدا ويفخّمون قوة ابن سعود، والحال أن الأمر على خلاف ذلك، إنما من أبطر الخيانة تيقّن أن عساكر ابن سعود لا زاد معهم، وأن مآلهم أن يهربوا، فما أراد الغشيلة على صديقه وابن عمه في الباطن، بل حسّن للكتخدا أن الصلح أوفق والكتخدا غلام غر سلّم أموره لأعدائه وهو لا يشعر، وقتل قبل ذلك خالد بن ثامر أخو حمود، فلم يؤاخذ ثأره، ثم ورد كتاب على الكتخدا من سعود يقول فيه: من سعود إلى ابن عبد العزيز إلى علي.. أما بعد: فما عرفنا سبب مجيئكم إلى الحسا، مع أن الحسا روافض، ونحن جعلناهم بالسيف مسلمين، وهي قرية ليست بداخلة في حكمكم، والذي يحصل منها قليل بالنسبة إلى تعبكم، ولو أن جميع أهل الحسا وما يليها يدفعون إليكم كل ما يملكونه من دراهم وغيرها لما يعادل مصاريفكم في هذه السفرة فقط، وما كان بيننا وبينكم من المضاغنة إلاّ ثويني، وقد لقي جزاءه، فالآن مأمولنا المصالحة وهي خير لنا ولكم سيد الأحكام.

فلما اطلع الكنخدا على الكتاب ارتضى الصلح، فكتب جوابًا لابن سعود: من علي باشا إلى سعود بن عبد العزيز أما بعد: فقد أتاني كتابكم، وكلما ذكرت من أمر المصالحة صار لدينا معلومًا، لكن على شروط نذكرها لك، فإن قبلتها وعملت بها فحسن، وإلاَّ فما نحن عاجزون عنك ولا عن طوائفك وعندك الصحيح إذا اشتدت الهيجا وانشقت العصا، فحسبك والضحاك سيف مهنّد حيث لنا مقدار أربعة أشهر في بلادك، نجوب الفلا ونتأثر أهل القرى، وأنت ما قدرت تظهر من مكانك غير هذه الدفعة، وبهذه الدفعة أيضًا اغتررت بقول عفيصان، فأما [٢٥] الشرط الأول: نريد أن لا تقرب الحسا بعد الآن، والشرط الثاني: أن ترجع الأطواب التي أخذتها من ثويني، والشرط الثالث: أن تعطينا جميع ما صرفناه في هذه السفرة، والشرط الرابع: أن لا تتعرض للحجاج الذين يأتون إليك من طرف العراق، ولا لأبناء السبيل، وأن تكفّ غزوك عن العراق، وتكون معنا كالأول.

فهذه الشروط التي أخبرناك بها، والسلام على من اتّبع الهدى.

فكتب له ابن سعود ما نصه: جاء كتابكم وفهمنا معناه، فأولاً الحسا قرية خارجة عن حكم الروم وما شاوي(1) التعب وما فيها شيء يوجب الشقاق.

وأما الأطواب فهي عند والدي في الدرعية إذا وصلت إليه أعرض الحال بين يديه، والوزير سليمان باشا أيضًا يكتب إليه، فإن صحت المصالحة تصلكم الأطواب، وأنا كفيل على ذلك حتى أوصلها البصرة.

وأما مصاريفكم فإني لم أملك من هذا الأمر شيئًا والأمر فيه لوالدي إذا وصلت إليه.

وأما ما ذكرتم من أمر الطريق وعدم التعرض للحجاج فحبًا وكرامة،

(1) شاوي

وعليّ عهد الله وميثاقه أن لا يفقد لكم بعير، وأن لا يسدى منّا ضرر على المارين، ومالهم عندنا غير الكرامة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

واعلم أن علي باشا الكتخدا إنما صالح سعود لما داخله من الخوف من استشارته بعض أعدائه في الباطن، وأصدقائه في الظاهر مثل إبراهيم بن ثابت بن وطبان فإنه من أقارب سعود الخارجي، وهو فصيح المنطق، داهية دهباء في التحايل وفي قلب الموضوع، وربما سأله بعض خواص علي باشا عن كمية عساكر سعود لعدم مفاوضته لأهل النصح والديانة.

وأما ما ذكره المؤرخ التركي من العسكر أصابه ضرر من قلة العلف والزاد، ولقد والله خدع الكتخدا في هذه المصالحة، ومما يدل على أنه خدع، أن حمود بن ثامر أبى المصالحة إلاَّ أن يعطيه الكتخدا كتابًا بأن الصلح كان على غير اختيار حمود، وقد رُمي في ذلك محمد بن شاوي وهو بريء. ولما تمّ الصلح[1] رجع الكتخدا إلى بغداد ولم يفِ سعود بواحد من الشروط بل طغى وبغى وزاد في نشر بدعته [٢٦] وقتال المسلمين علينا.

وكان رجوع الكتخدا في رابع صفر سنة ١٢١٤هـ أربع عشرة مائتين وألف.

---

(١) قوله: ولما تمّ الصلح، كيف يقول عليه، (تمّ)، مع أن جميع ألفاظ سعود معلقة، ولا يفيد القطع أبدًا، مثل قوله: إذا وصلت إلى والدي في الدرعية، فإن رضي بتسليم الأضواب. ومثل قوله: فإن صحت المصالحة فكل من يسمع هذا، ويعتقد أن الصلح تمّ فلا عقل له، ولكن ما حمل علي باشا على قبوله هذا الصلح المفكك، إلاّ خوفه، وكونه مبزوقًا، فعذره أدنى عذر يعتذر به، ولو بارك الله كاتبه.. آمين.

وفي هذه السنة أقبل عبد الله آغا متسلم البصرة إلى بغداد، وتضرع الوزير فأكرمه الوزير سليمان باشا، وأرجعه إلى البصرة متسلمًا.

وفيها تولّى قضاء البصرة الشيخ عبد الله الرّجس (١) ثم البغدادي الحنفي، وستأتي ترجمته.

وفيها أغار عَنَزَة على الدُّليم قبيلة مشهورة قيل إنهم من حمير، وقيل إنهم من كهلان، ولما غنم العنزيون منهم ومن غيرهم من عرب العراق أَمَرَ الوزير سليمان باشا بأن شيخ العنزيين فاضلاً يؤدي ما غنمته قبيلته من أموال الدُّليم وغيرهم، فلما أمرهم فاضل لم يطيعوه، فخرج عليهم الكتخدا علي باشا بعسكره، وأحاط بهم على غرة فالتجأ العنزيون بآل قشعم ومعهم عرب العراق، فشفعوا لهم عند الكتخدا فقبل شفاعة المتشعمين على أن يعطوا الكتخدا ثلاثة آلاف بعير وخمسين فرسًا، هكذا نقله المؤرخ التركي. والذي أحفظه أنهم خدعوا الكتخدا ولم يعطوه شيئًا.

وفيها غزا الكتخدا علي باشا آل قشعم والدليم، فأغار عليهم ولم يظفر بهم لانهزامهم عندما سمعوا نهوضه من بغداد فجدّ في طلبهم إلى أن وصل أن شناثي (٢) وعاد إلى الفلوجة، وأرسل آل قشعم وغيرهم على أن يرجعوا آمنين، فرجع كل إلى مقرّه.

وفي السنة ١٢١٥هـ (الخامسة عشر ومائتين وألف): تمرّد آل سليمان من خزاعة، ومنعوا الخراج، فأمر الوزير سليمان باشا بأن يغزوهم علي باشا الكتخدا فخرج فلما وصل إلى ديارهم فرّوا منه، وتحصّنوا في قلعتهم، فعبر إليها حتى وصلها، وحاصرهم، فلما ضاق بهم الخناق ارتحلوا إلى البادية، فاقتفى أثرهم، وأحاط بهم ليلاً، وقتل البعض

ونهبهم، وأرسل الغنائم إلى سليمان باشا، ففروا أيضًا فتبعهم فما وسعهم إلاّ طلب الأمان والعفو، فمنحه إياهم على شرط دفع الخراج المتقدم والمتأخر، فدفعوه ورجعوا إلى أوطانهم آمنين.

وفيها توجه عبد العزيز بن عبد الله بن شاوي إلى حج بيت الله الحرام وأمره الوزير سليمان باشا بأن يمرّ في رجوعه إلى الدرعية، ويتلاقى مع عبد العزيز بن سعود ويكلّمه في ديات من قتلهم من قبيلة خزاعة، وديّات سكان النجف وأموالهم [٢٧] فلما قفل من الحج اجتاز بابن سعود، وكلمه في هذا الأمر، فقال له: هذا كلام محال، لا أدفع الديّات المذكورة، إلاّ أن يكون غربي الفرات لي، وشرقيّه لسليمان باشا.

فانقلب ابن شاوي بخُفّي حُنين، وما استفاد من اجتماعه بابن سعود إلاّ أنه رجع متغيّر العقيدة.

ولما وصل بغداد وأخبر الباشا بجواب ابن سعود غضب الباشا، وعزم على غزو ابن سعود، وأخذ يجتهد في أسباب الحرب.

وخرج عبد العزيز المذكور من بغداد، في آخر سنة ١٢١٥هـ، ورجع في سنة ١٢١٦هـ.

وفيها تشفّع الوزير عند السلطان سليم أن يرجع تمر بيك الملّي إلى محل حكومته، وأن يعفوَ عنه.

وفيها أغار أهل نجد على العراق فأرسل علي بيك الكتخدا لمقاتلتهم، ومعه محمد بن شاوي الحميري، وفارس بن محمد الجرباء الشميري(١)، ومعهم من عسكر الوزير جملة، فلما أدركوا أهل نجد وجدوهم

(١) الشمري

قد تحصنوا بالرواحل، فأحجبوا عن مقاتلتهم وجبنوا، فرجع العسر إلى شثاني.

(١) العكر

وفي تلك السنة تمرّد عفك وجليحة ومنعوا الخراج، فخرج عليهم الكتخدا فسار إلى أن نزل الوسغية فأعطاه مقدموها ما أراد من الخراج وتأدّبوا.

وفيها عزل عبد العزيز عبد الرحمن باشا الكردي وأخوه سليم عن كوى وحرير لما كان منهم من الأمور المنافية للطاعة، فأتى بهما إلى بغداد وغُرِّبا إلى الحلة، وولي الوزير محمد بن تمر باشا كوى وحرير.

وفيها غزا عبد العزيز بن سعود العراق، وأناخ على كربلاء وأذاقهم كأس البلاء، فقتل أكثرهم، ونهب البلدة، حتى يقال أنه ما غنم ابن سعود في مدّة ملكه بعد خزائن المدينة المنورة أكثر من غنائم كربلاء من الجواهر والحلي والنقد، ثم قفل إلى نجد متبجِّحًا بما فعله من سفك دماء، لا إله إلاّ الله، وإن كانوا روافض.

فلما بلغ الوزير هذه الوقعة أرسل علي بيك الكتخدا مع عسكر مبرار فما وصل الكتخدا إلى الهندية إلاّ وابن سعود قد نجا على الغود المبرية.

وفي آخر هذه السنة عَزلَ الوزير سليم بيك صهرهُ عن البصرة.

وفي السنة ١٢١٧هـ (سبعة عشر بعد المائتين والألف): وهي المرافقة لثلاثين سنة من ولادة المترجم، توفي الوزير سليمان باشا أبو سعيد والآثار الجميلة التي منها هذا المترجم المفخم [٢٨].

وذكر المؤرخ التركي أنه قبل الوفاة جعل ولي عهده علي بيك

الكتخداه وأوصاه بذلك مماليكه نصيفًا وسليمًا، والمترجم المفخم دفن رحمه الله بجوار أبي حنيفة رضي الله عنه.

ومن مآثره الجميلة، أنه عمّر سور بغداد، وأنشأ سورًا غربيها بالشام، وهدم دار الإمارة وعمّرها من جديد بعمارة لائقة بالوزارة، وأنشأ المدرسة المعروفة بالسليمانية، وشحنها بالكتب الحديثية والفقهية والأدبية وعمّر جامع القبلانية، وجامع محمد الفضل، وجامع الخلفاء ونقصه عما كان في الأصل، وذوق منارة جامع الإمام الأعظم، وأنشأ على نهر نارين قنطرة وعمّر كوت العمارة وسوره، وعمّر صور البصرة، وسور سيدنا الزبير، وسور الحلّة وسور ماردين، وأنشأ قرب الموصل قلعة حصّنة.

وأجمع أهل الحل والعقد بعد دفنه وكتبوا إلى السلطان أنّ علي بيك الكتخدا هو أولى بالوزارة من غيره وأرسلوا العرض إلى الدولة، إلاّ أن أحمد آغا كان منافقًا، وقيل رافضيًا، ومراده إيقاد نار الفتنة، فلا زال يحسّن لسليم باشا صهر المتوفى أن يطلب وزارة بغداد ويفتل الجبل في تتميم هذا المرام، ووافقه على ذلك جملة من المفسدين والغوغاء، فجاء إلى علي باشا في صورة ناصح، وقال له: إن أهل العراق لا يخلون من النفاق، فالرأي عندي أن تأذن لي أن أضبط القلعة بزمرة من الينكجرية، فنكون آمنين من جهة الأهالي، والحزم في كل الأمور أولى، فأجابه علي باشا إلى ما طلب، فأدخل معه في القلعة من أراده، ولكن عاقبة الماكر الخسران، فلما استشعر علي باشا بهذه الخديعة والمكيدة أعلن الحرب مع أحمد آغا وسليم باشا، فلما التقى الفريقان كانت الهزيمة على عسكر علي باشا في داره، وجلس سليم فوق كرسي الحكم بالقوة الجبرية إلاّ أن أحمد آغا لم يكتف من علي باشا بجلوسه في داره، بل بالخروج إلى دار عبد الله

باشا، فلما اشتدّ الكرب وأشرف علي باشا على الهلاك هبت له رياح الفرج وساعدته بعض العساكر، فنصره الله على عدوّه، وانكسرت شوكة أحمد آغا، وقُتل أشرّ قتلة، وقتل جملة من أنصاره، وفرّ سليم باشا، وركب متن الهرب، فعفى علي باشا من العسكر الباقين، وسكنت [٢٩] الفتنة، وصفا الوقت لعلي باشا، وصار وزير بغداد حقًّا، بل وجاءه الفَرَمان من السلطان سليم بذلك.

وفيها غزا الوزير علي باشا بعدما وردت له الإيالة البلباص من بلاد الأكراد، فأطاعوه وأعطوه ما أراد، ثم انقلب بعسكره الجرار، وعبر الدجلة من الموصل لمقاتلة جبل سنجار، وممن قاتل في واقعة سنجار محمد باشا والي كوى، وشمّر عن ساعد الجد، وأما إبراهيم باشا فإنه قاتلهم في يوم هزم فيه عسكره.

وفي تلك الأيام مرض إبراهيم باشا، ولما اشتدَّ به المرض ذهب إلى الموصل، ومات رحمه الله تعالى، فلما بلغ الوزير وفاته نصب مكانه عبد الرحمن باشا، وانتقل إلى غربي الجبل لمحاربة أهل الطغيان، وأقام هناك أيامًا يقطع في الأشجار ليمر إلى الجبل.

وقد شاهدته في تلك الواقعة، ووفدت عليه فأكرمني، وأنزلني بقربه، وطلبت منه ألتمس تولية المدرسة المغامسية في البصرة، فتفضّل عليّ بها، ورجعت من عنده مسرورًا ثم سافر الباشا إلى محاصرة الجبل، وفي رجوعه غضب على محمد وعبد العزيز ابني عبد الله ابن شاوي فأمر بخنقهما فخنقا لأمور كان ينقمها عليهما.

فأما محمد فكان من أمراء العرب أهل النجابة والغيرة والحمية

والصدق والوفاء، وكان كلما زاد رفعة عند الملوك ازداد تواضعًا على العامة، وذلك أن أصله من خرقة العلماء وفي مدة عمره جلساؤه أهل العلم والصلاح، وكان يعتمد عليه الوزراء في السفارة بينهم وبين قرنائهم، لأمانته وفصاحته ودهائه، وطلما خدم هذه الدولة خدمة النصوح الأمين، إلاَّ أنه في المثل أخر خدمة السلطان قطع رأس، ولكن بعض الحساد أغروا الوزير عليه فخنقه وخنق أخاه.

وأما أخوه عبد العزيز فما هو ببعيد من محمد في العقل والفصاحة والديانة لكن لما أرسله الوزير سليمان باشا إلى الوهابية في نجد شرب بعض عقائدهم ظنًا أنها هي الحق وما عداها الباطل لأن هؤلاء الوهابيون تغالوا في إظهار النصح للإسلام، حتى خرجوا عن الحد، وأظهروا للناس بعض زخارف لا تروّج إلاَّ على العوام، وصاروا يكفّرون ما عداهم من المسلمين، حتى إن بعضهم ألّف كتابًا، وذكر فيه أن الإمام السبكي مشرك، وهم يسمون أنفسهم بالسلف، ويزعمون أن لهم قدرة [٣٠] على أخذ الأحكام من الأحاديث النبوية، مع أني رأيت أعلمهم يقرأ في الحديث، ويقول: حدّثنا الحَرْث بن هشام، بفتح الحاء وسكون الراء، ولم يعرف أن نحو الحارث مع (أل) يرسم بدون ألف، ومَنْ جهل مثل هذا، أفهل يجوز له أن يستنبط الأحكام من الأحاديث النبوية، مع أنه لا يعرف اصطلاح علم الحديث، بل ولا الضروريات منه، وما ضرّنا إلاَّ جهلهم المركب، تجد، الرجل منهم بدويًا جافي الطبع، كان يرعى الغنم، فأصبح يفسر في القرآن بجهله وبرأيه.

نعم وإن كان في زمنه ﷺ يرد عليه البدوي الجاهل الجلف فبعد مدّة قريبة تتفجّر ينابيع الحكمة من قلبه، إلاَّ أن ذلك لمشاهدته الأنوار النبوية

انبعث من ذلك النور قدر يسير فصيّره بتلك الحالة.

وأما في زماننا فهؤلاء الوهابيون لا نشك في أن كل واحد منهم بمنزلة مسيلمة الكذاب، فمن أين له نور؟ ومن أين له معرفة خاصة به؟ فضلاً عن أنها تتعداه لغيره، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولما أمر بخنقهما دفنا بترب بعضهما فرثيتهما بقصيدة مطوّلة، وذلك في أول المحرم من سنة تاريخها غريبها وهي سنة ألف ومائتين وثمانية عشر، وهي السنة الحادية والثلاثون من مولد المترجم.

وبعدما أوقع الوزير على باشا بذانك السريين ما أوقع ظل في البرية، والطاعون يحصد في العالم كحصاد الزرع، لأنه ابتدأ دخوله في بغداد سنة ١٢١٧هـ، واستمر إلى سنة ١٢١٨هـ، وهي سنة ألف ومائتين وثمانية عشر، وهرب من بغداد من هرب، واستخفى من استخفى.

وفي سنة ١٢١٩هـ (التاسعة عشر بعد المائتين والألف): غزا سليمان بيك ابن أخت الوزير علي باشا بادية الجبلين أجأ وسلمى وغنم نعمًا وشياه، فنصبه الوزير كتخدا بغداد، وسار على جميع أقرانه، وجالس الأفاضل والعلماء.

وفي سنة ١٢٢٠هـ (عشرين ومائتين وألف): قتل خالدًا وغضب على عبد الله آغا وغرّبه، وفي تلك السنة [٣١] قتل عبد الرحمن باشا الكردي محمد باشا والي كوى لما كان بينهما من العداوة، فلذلك غضب الوزير على عبد الرحمن باشا وغزاه وشتّت شمله وبدّد جموعه.

وفي تلك السنة حاصر سعود بن عبد العزيز البصرة وقتل ونهب وحرق وخرّب، ومستلم البصرة إذ ذاك إبراهيم آغا فصابر على الحصار

صبر الكرام، ثم إن حمودًا جاءه وساعده، وشدّ عضده، وكان غزوه في آخر هذه السنة التي قتل فيها أبوه، ولما رجع من غزاته خائبًا أغار على آخل الضفير، ولم يبق لهم لا شاة ولا بعير، وآل الضفير قبائل متعددة من قبائل نجد، ومشايخهم آل سويط، وقيل إنهم من بني سليم، فهم من بني قيس.

وفي سنة الثالثة والثلاثين من مولد المترجم، وهي سنة ١٢٢١هـ سار الكتخدا سليمان بيك ليساعد خاله على أمور الوزارة، وفيها انتدب الوزير علي باشا لمحاربة شاه العجم فتح علي خان، وأرسل العرضي ورئيسه ابن أخته الكتخدا سليمان بيك، فسافر إلى أن وصل إلى حدود العجم، والتقى العسكران، وكان سليمان بيك شابًا خفيفًا فهجم على العدو من غير روية، فما كان منه إلّا أنه انهزم هو وعسكره بل وأسر هو.

فلما بلغ الوزير أسر ابن أخته تشوّش فكره وأخذ في الهزيمة بمن معه من العسكر إلى أن تحصّن في أحد قلاع ممالكه، ثم جاء حمود بن ثامر وقوّى عضده وساعده، وأقام في ذلك المكان أيامًا ليؤمّن الطريق والسبل والسفراء بينهما ساعون في أمر الصلح إلى تمّ الصلح، فسافر إلى بغداد في آخر رجب، وكان خروجه منها في عشرين من ربيع الآخر.

ثم إن العجم أطلقوا الكتخدا سليمان بيك ورجع إلى بغداد بموجب الصلح، فما لبث في بغداد يسيرًا إلّا وفاجأه خاله الوزير علي باشا المنية، وذلك أنّ خدّامه قتلوه وهو في صلاة الفجر، فأُخذوا وقُتلوا، وظهر الغمّ والحزن على سليمان بيك بقتل خاله، وإن كان قَتْلُ خاله جلب له الوزارة كما سنبيّنه.

وفي سنة قتل الوزير علي باشا قدم إلى البصرة العالم النحرير الذي فاق في سائر العلوم معاصريه عالم المدينة على الإطلاق مولانا السيد زين جمل الليل أبو عبد الرحمن، ولما شرّف [٣٢] بلدتنا سلَّمتُ عليه ورويت عنه الحديث المسلسل بالأولية، وقرأت أوائل الكتب الستّة، ورويت عنه الثبت المسمّى بالأمم للشيخ أبي الطاهر إبراهيم بن حسن الكوراني المدني، وكتب لي إجازة دالة على طول باعه في العلوم الحديثية.

ولما ورد بغداد في حياة الوزير علي باشا أفاد وأجاد، وأكرمه الوزير بما يليق بأمثاله، وبالغ في إكرامه وأعلا مقامه، ومما أكرمه به الوزير علي باشا، أنه أمر بإرسال مال جسيم إلى المدينة المنورة يشتري له بها عقار، ويوقف على السيد زين جمل الليل، لكن اخترمته المنيّة قبل أن يوفي بمرامه.

وأما ابن أخته سليمان باشا فلم يوف بوصية خاله، وممن استجاز من السيد زين جمل الليل داود باشا المترجم، فأجازه برواية البخاري وفتح الباري، وأمره الوزير سليمان باشا بعدما توفي خاله، بقراءة البخاري على رؤوس الأشهاد، حتى يتميّز علمه بين الناس، ثم رجع من بغداد على طريق البصرة فلازمتُه وانتفعتُ به، ثم رجع إلى المدينة في السنة ١٢٢٢هـ الثانية والعشرين ومائتين وألف.

وفيها تولى بغداد سليمان باشا ابن أخت علي باشا السابق وفيها تسلطن السلطان مصطفى العثماني بعدما قتل السلطان سليم.

وفي السنة ١٢٢٣هـ (الثالثة والعشرين ومائتين وألف): ورد إلى بغداد خبر سلطنة السلطان محمود ابن السلطان عبد الحميد خان العثماني

وأنارت الدنيا بعدله وعزمه وهمته، وجدّد للدولة اسمًا بعدما درس رسمها، وآلت إلى الزوال من تغلب الكفار من الخارج، وعصيان الدربيات من الداخل، وخروج الوهابي بأرض العرب فأشرفت المملكة على الزوال لولا أن الله مَنّ به على الإسلام والمسلمين.

ومن مناقب السلطان محمود التي يفتخر بها على سائر الملوك إزالته رأس المبتدعة الوهابي الخارجي من أرض العرب، وتطهير الحرمين من تلك النجاسات بعدما ملكها الوهابي نحو سبع سنوات، فأمر السلطان محمود محمد علي باشا والي مصر الكوللي أن يجهّز جيشًا لإزالة الوهابية من سائر أرض الله، وذلك بعدما استولى الوهابي على الحرمين، ونهب جميع ما في الحجرة من الذخائر والجواهر، ومنه حجاج مصر والشام على أنهم [٣٣] مشركون، فلا يقرب المسجد الحرام بعد عامهم هذا.

ثم إن محمد علي باشا شمّر عن ساعد الجدّ في خدمة السلطان، وأرسل جيشًا عرمرمًا، ورئيسه أحمد طوسون باشا ابنه، وذلك سنة ١٢٢٥هـ خمس وعشرين ومائتين وألف، فمن قدَر الله الذي لا يرد، أنه لما وصل طوسون باشا إلى ينبع عزم على الرحيل إلى المدينة المنورة، فكانت عساكر بن سعود متجمعة في الصفراء من أرض الحوازم، فنشب الحرب بين الفريقين في الصفراء، فأولاً كانت الهزيمة على الوهابيين، ثم في آخر النهار جاءهم مدد وهم عرب الظواهر، وشيخهم ابن مضيان، فتقوّى به عضد سعود، ولمّ جموعه، وهجم على الروم، فلم يسع الروم إلاّ الرجوع وتركوا أثقالهم، ووصلوا إلى ينبع، وتحصّنوا فيها.

وكتب أحمد باشا طوسون لوالده محمد علي باشا يخبره بما وقع،

ففي الحال أمدّه بعساكر، ومهمات أخرى، وبقي في ينبع، وواقعة الصفراء كانت في سنة ١٢٢٦هـ ستة وعشرين ومائتين وألف.

فلا زال في ينبع يتألف الأعراب من شيوخ حزب بالعطايا والأماني إلى أن وصله المدد من مصر، فعزم على السفر إلى المدينة المنورة مع جيوشه، فمن حين سافر من ينبع إلى أن قرب المدينة ولم يجسر سعود على ملاقاته جهارًا، فوصل المدينة وفيها أتباع سعود عشرة آلاف من أهل نجد وعسير مرابطون لحفاظتها، فلما حطّ رحله بقرب المدينة أطاعه أهل المدينة وهم في غاية الفرح والسرور.

والمرابطون انحصروا في القلعة، فلا زال الحصار عليهم، وأهل المدينة يدبرون مع الباشا في كيفية إتلاف الوهابيين، تارة بألغام البارود، وتارة بالرمي بالرصاص، وتارة بالمدافع، وأهل المدينة علّموا العساكر جميع الطرق، التي يأتي منها المدد للمرابطين فحصروها العساكر، ومعهم أهل المدينة ولما ضاق الحصار بالمرابطين طلبوا الأمان من الباشا بعد أن هلك نحو نصفهم من الحرب ومن المرض ومن الجوع، فأعطاهم الأمان وخرجوا مطرودين إلى البوادي، وطهّر الله المدينة المنورة من هذه الخبائث والأرجاس، وخروجهم من المدينة في سنة ١٢٢٧هـ.

وفي سنة ١٢٢٨هـ: خلت الحَرَمان من جميع أتباع الوهابية، وفي التاسعة [٣٤] والعشرين استولى محمد علي باشا على جميع أرض الحجاز، وحصلت واقعة جسيمة بين عساكر محمد علي باشا والوهابية في نزيه، وكانت الهزيمة على الوهابية، وكان رئيس عسكر الوهابية هو فيصل بن سعود، ورئيس عسكر الروم هو محمد علي باشا بنفسه.

ولما فتحت المدينة المنورة، وأرسل بمفاتيحها إلى الدولة العلية، خرجوا لملاقاة المفاتيح من خارج القسطنطنية، ولاقوها بالمباخر تعظيمًا جميع كبار ورجال الدولة وعلمائها، وخرج السلطان محمود بنفسه إلى خارج السراية لملاقاتها، وأرسل إلى سائر البلدان بالبشائر والتهاني، وفي الحال أمر السلطان أن يعيدوا في الحرمين ما امتدت إليه أيدي الخراب، فأُعيد إلى الحالة الأولى، بل أحسن وزاد في إعطاء أهلها، وسيأتي إن شاء الله تعالى قصة فتح الدرعية، وإرسال إبراهيم باشا إليها وتخريبها.

ولما تولّى الوزارة سليمان باشا المقتول سار في الناس سيرة حسنة، وجالس العلماء، ومن يظن فيه الخير، ومنع قضاة الأعمال عن أخذ العشور، ورتّب لهم كفايتهم من بيت المال، وحظي عنده من علماء بغداد شيخنا علي السويدي عالي الإسناد في الحديث، ولولاه لخربت البصرة، ولم يجب منها قوصره، وذلك لسعي متسلمها في تدميرها وخرابها لظلمه وعسفه.

في سنة ١٢٢٤هـ (أربع وعشرين ومائتين وألف): غزا الوزير سليمان باشا المقتول ديار بكر بجيش عظيم لتأديب آل الضفير، وقبيلة من عنزة كبيرهم الدريعي، وكان خروجه من بغداد في الخامس والعشرين من محرم.

فلما جاوز الموصل شنّ الغارة على أهل سنجار فصبّح القرية المعروفة بالبلد، وغنم وقتل وسبى، وتحصّن من بقي من أهلها بثنية من ثنا سنجار، ثم توجّه إلى آل الضفير والعنزيين، فلما وصل إلى رأس العين بين حراب[1] ونصيبين، وكان أخوه من الرضاعة أحمد بيك توجه إلى ماردين

[1] حران

بطليعة، فما كان منه إلاّ أنه أرسل يطلب من الوزير المدد، فأمدّه بعسكر وتوجّه هو إلى ديار بكر، فلما وصل إلى قرية يقال لها ديرك حاصرها، فأظهر أهلها الطاعة، وأرسلوا له هدايا تليق به، وتوجّه منها إلى ماردين، فورد عليه أخوه أحمد بيك [٣٥] وقد كسره آل الضفير، وقتل من عسكره خلقٌ كثير.

فلما أراد الباشا الكرّ عليهم، وأخذ الثأر منهم تخلّف عنه بعض الأكراد راجعًا، فما كان للوزير بدٌّ من الرجوع إلى بغداد، فسافر ووصل الموصل وبعدما رحل عنها بلغه أن بني عبد الجليل من الأكراد أرادوا إخراج وزيرهم أحمد باشا فأقام والي بغداد ليصلح حال أحمد باشا، فاشتدت الحرب، فانتقل الوزير عنهم مسافة ساعتين، فلم يمكن والي الموصل الاستقرار فلحق بالوزير سليمان باشا، وطلب منه المدد فخلف عنده بعض رجاله، وتوجّه إلى بغداد فبمجرد وصوله نفى خازنداره عبد الله بيك، ومعه طاهر بيك إلى البصرة لما بلغه عنهما من المخالفة، وأرسل سليمان باشا الكردي إلى أحمد باشا والي الموصل، ليكون في مساعدته.

وكذلك أمر متصرف العمادية زبيرًا أن يرسل عسكره مساعدة لوالي الموصل، فلما وصل سليمان باشا، وعسكر العمادية إلى أحمد باشا أخذ يحارب بني عبد الجليل، فنصره الله عليه، وأُسر الأمير عثمان بيك أحد بني عبد الجليل، فلما انهزم الأعداء وأُسرَ مَنْ أُسر انفقعت لأحمد باشا بندقة قتلته فما التذّ من حلاوة الظفر حتى تنغص بمرارة الموت.

ولما بلغ والي بغداد قتل أحمد باشا، أرسل أخاه من الرضاعة أحمد

بيك الذي ولّاه حكومة البصرة بعسكر ليحاصر الموصل، وينتقم من بني عبد الجليل الباغين على واليهم بالنفي والقتل.

فلما وصل إلى إربل أغار على بعض قرى الموصل، فبينما هو سائر إذ بلغه أن إيالة الموصل توجهت إلى الأمير محمود بن محمد باشا أحد بني عبد الجليل، فتفل أحمد بيك، ودخل بغداد.

وفي سنة ١٢٢٥هـ (خمسة وعشرين ومائتين وألف): ظهر للوزير أن سليم بيك والي البصرة راسل الدولة طالبًا إيالة بغداد، وشهرزور، والبصرة. فلما بلغ والي بغداد وقع في حيرة، فراسل حمود بن ثامر طالبًا منه أن يخرج سليمان من البصرة، فتكاسل حمود عن ذلك حتى تبين له الحال، لأن سليمان أفهمه أن الرئيس قبل من الدولة بعزل سليمان باشا، وتوجيه الإيالة لي، فلما استبطأ حمود قدوم الرئيس، إذ لم يأت به خبر عنه، مع ترادف رسل الوزير سليمان [٣٦] باشا عليه قرب من البصرة وحاصرها بمعاونة أهل الزبير، وبرغش بن حمود، فخان بعض العساكر الداخلين، وفتحوا أبواب السور، فسقط في يد سليم باشا، فسافر في مركب إلى أبي شهر فارًّا من الباشا والي بغداد.

وفي هذه السنة بعدما فرّ سليم باشا ورد إلى البصرة أحمد بيك، أخو الوزير من الرضاعة، متسلّمًا للبصرة، وفيها ورد البصرة الشيخ علي بن محمد السويدي، أرسله الوزير سليمان باشا إلى حمود قبل فتح البصرة لكونه من خواص الوزير، فكفّ الله به عن أهل البصرة ما عسى يتوقعون من حاكمها أحمد بيك أخو الباشا من الرضاعة.

وأحمد بيك هذا هو في غاية من سوء التدبير، فما استقرّ المتسلّم

الجديد إلاّ وجاء خبر وصول الرئيس إلى بغداد، وأن الوزير متحيّرٌ في ذلك، ولم يدر أهو جاء بعزله أم جاء لغرض آخر، فبعدما جلس الرئيس في بغداد بعض أيام، وهو خائف لم يبرز الأوامر التي بيده إلى الوزير بعزله، فما كان منه إلاّ أنه ركب جواد الفرار، وطار من بغداد لأوهام اعترته من الوزير، فلما وصل الموصل استصرخ بعبد الرحمن باشا وأكراده قائلاً أن الوزير سليمان باشا عصى ورفض أوامره الدولية العلية، والحال أنه لم ينطق من أوامره ولا ببنت شفة.

فما وسع عبد الرحمن باشا إلاّ مساعدته لتنفيذ الأوامر السلطانية الواجبة الإطاعة، والفرامانات الخانقية المفروض تعظيمها، فلما وصل الرئيس إلى بغداد ومعه عساكر الموصل والأكراد، ومعه أيضًا عبد الله بيك، وطاهر بيك، اللذَيْن نُفيا قبلاً إلى البصرة، فخرج الوزير عليهم للمحاربة فخزله أنصاره، وجبن عساكره، ففرّ هاربًا قاصدًا شيخ المنتفق حمود بن ثامر فاجتاز بقبيلة الدفافعة، فقام عليه أحدهم وضربه برصاص فقتله وهو ضيفهم ونزيلهم.

فلما شاع خبر موت الباشا كثر عليه الأسف من القاصي والداني لحسن سيرته وعدله، وشفقته على الضعفاء.

وفي سنة قتله تولّى الوزارة عبد الله باشا الذي كان منفيًا إلى البصرة، وفي السنة التي بعدها قتل سليم بيك الذي كان متسلّم البصرة، وقتله عبد الله باشا وطاهر بيك، لأنه سعى في حياتهما، وذلك أن سليمان باشا لما نفاهما [٣٧] إلى البصرة أرسل أوامر لسليم باشا بقتلهما، فحاول سليم باشا حتى هرّبهما ونجّاهما، وأعطاهما من عنده مالاً ليتوصّلا إلى بلاد الأكراد حيث يأمنان على أنفسهما.

فلما صفا لهما الوقت، وملكا زمام بغداد، وفد عليهما ليجازياه ويكافئاه على إحسانه، فما كان منهما إلاّ أن قتلاه زاعمين في الظاهر أنه كفر نعمة سيده.

ولما تولّى عبد الله باشا أعطى عبد الرحمن باشا الكردي قيادة وسلمه وسنّه، فوقعت بينه وبين الرئيس فتنة، قتل فيها جملة من أهالي بغداد، وفرّ جملة أخرى، أما الرئيس فكاد يكون قتيلاً، فرجع إلى ما رامه عبد الرحمن باشا الكردي، فبعد ذلك استقرّت الأمور لعبد الله باشا.

وفي سنة الأربعين من ولادة المترجَم، وهي سنة ١٢٢٨هـ (ثمان وعشرين ومائتين وألف): غزا عبد الله باشا عبد الرحمن باشا الكردي لتجاهره بالعصيان، فتلاقيا في موضع يقال له كفرى، فنشب الحرب بين الفئتين، فكانت الهزيمة على عسكر عبد الرحمن باشا الكردي، ففرّ إلى كرمان من بلاد العجم.

وممن قتل في هذه الواقعة خالد بيك أخو عبد الرحمن باشا، ومكث الوزير ثلاثة أيام، وبعدها توجّه إلى كركوك، وحبس متسلّمها خليل بن صاري مصطفى، وقاضيها عبد أفندي، وحبس أيضًا شاطىء[1] شيخ شمر وثلاثة من كبار عشيرته، وتوجّه إلى الموصل قاصدًا تنكيل سعد الله باشا لتخلّفه عن مساعدته، ولمراسلته مع عبد الرحمن باشا.

ولما بلغ سعد الله باشا توجّه الوزير لمحاربته استقبله واعتذر منه، فقبل عذره وعفى عنه، ثم رجع الوزير إلى بغداد، ولما وصل الجديدة بلغه أن سعيد باشا ابن سليمان باشا فرّ من بغداد إلى حمود بن ثامر، فدخل الوزير بغداد يوم ٩ رجب، وفي أول ذي القعدة خرج الوزير يوم

حمود بن ثامر مشكور شيخ ربيعة، بعسكر جرار، ولم يدر أن الدائرة عليه ستدور.

فلما وصل أرض المنتفق عبر من غربي الفرات على الجزيرة، فوافقه على محاربة حمود بن ثامر مشكور شيخ ربيعة، وبعد ذلك غزا من المنتفق صالح بن ثامر مشكور الربعي، فتقاتلا [٣٨] مليًا، فانهزم مشكور ومن معه، فعزل الباشا حمود شيخ المنتفق من المشيخة، وولى بدله نجم بن عبد الله بن محمد بن مانع أخو ثويني، فلا زال حمودًا يكاتب الباشا ويترضّاه في أن يدفع له جميع ما صرفه على العساكر، وهو يأبى.

ولما وقع بين صالح بن ثامر ومشكور ما وقع، وقتل مشكور زحف الوزير بعسكره إلى أن نزل قريبًا من عرب حمود فضاق حمود ذرعًا مع أنه يعلم أن مقاومة عسكر عبد الله باشا يميلون في الباطن مع سعيد باشا، ولكنه لحذره لم يثق بمراسلاتهم، ثم حمل الجيشان على بعضهما، وانهزم كثير من أتباع حمود وصدق الحملة برغش بن حمود فطعنه بعض عسكر عبد الله باشا، وحمل على ابن ثامر، وقتل نجم بن عبد الله المنصوب الجديد من جانب الباشا شيخًا على المنتفق.

ولما كادت عشيرة حمود تولى الأدبار انهزم آل قشعم من عسكر عبد الله باشا إلى المنتفق، وكذلك انضم كثير من أتباع الباشا الذين يميلون إلى سعيد باشا إلى جهة المنتفق، فسقط عبد الله باشا، وطاهر باشا في يديهما، فطلبا الأمان من حمود، فأعطاهما الأمان، ولكن لم يفِ لهما به، فإن عشيرته نهبت العسكر، ولم تبق معهم ما يسترون به عوراتهم؛ بل تركتهم مكشوفين السوآة، فأمر حمود بن ثامر على عبد الله باشا وطاهر

باشا، وثالث معهما أن يقيّدوا في الحديد، ويُذهَب بهم إلى سوق الشيوخ، وهي قرية المنتفق المخصوصة بهم، فلما مات برغش بن حمود من تلك الطعنة خنقهم راشد بن ثامر، وبعدما قُبروا نُبشوا من القبور، وقطعوا رؤوسهم،وهذا جزاء الغدّار، فإن عبد الله باشا الكتخدا، وطاهر باشا الخازندار، فعاقبهم الله بمثل هذا العقاب الشنيع، وبعد هذه الواقعة، ارتفع أمر حمود بن ثامر وصار له شأن غير الشأن الأول، وصار أمر سعيد باشا بيده، فلذلك أعطاه سعيد باشا ما في جنوب [٣٩] البصرة من قرى، وضحك له الزمان وأطاعه بما شاء، ثم توجّه حمود مع سعيد باشا إلى بغداد، ودخلاها بالموكب والأبّهة والجاه، وكاتب سعيد باشا الدولة فجاءه الفرمان بأنه والي بغداد والبصرة وشهرزور، فرجع حمود إلى المنتفق، لكن سعيد باشا لا يبرم صغيرة ولا كبيرة إلاّ بمشورته، ولو تباعدا بالأجسام من شدّة محبة له.

فلما وصل حمود إلى مقرّه طغى وبغى وتغيّر حاله الأول، وكثر الفساد من أتباعه وعشيرته، وكلما اشتكى أحد منهم لا يسمع فيه شكوى وصار كل مَن قصده مطرودًا أو مظلومًا لا يقربه إلاّ الطعام فقط، وتكبّر وعتى.

وفي تلك الأيام صار أهل البصرة لا ينامون من تسلط سرّاق بني المنتفق، حتى إن السارق ليتسوّر البيت العالي في النهار فضلاً عن الليل، فإن وجد شيئًا أخذه وباعه في البصرة، وصاحبه يراه، ولا يقدر يتكلم.

وأما سعيد باشا فإنه نعم الرجل، لولا أن فوّض أموره لهذا البدوي الغشوم الظلوم، وعما نقم الناس عليه، أعطى حمّودًا ما تحت يديه

وتصدير حمد أبي عقلين، وإعراضه عن تدبير مملكته بنفسه، وتسليمه زمام الملك إلى من لا يُقدِّر للملك قدرة، ولو فوّض أمره للوزير المترجم داود باشا لرأى من العدل ما ينسي أخبار أنو شروان.

تولى سعيد باشا وزارة بغداد في السنة الحادية والأربعين من مولدي المترجم، وهي سنة ١٢٢٨هـ ثمان وعشرين ومائتين وألف، وفيها غزا والي بغداد قبيلة خزاعة لطغيانهم وقطعهم الطريق، فلم يُجْدِه غزوه شيئًا.

ثم في سنة ١٢٢٩هـ : جهّز عسكرًا جرارًا وأمّر عليهم الأسد الغضنفر داود باشا، فسافر لغزو زبيد وشمر وخزاعة وآل الضفير، فإنهم عاثوا في الأرض بالفساد، وأخربوا جميع قرى بغداد، من أن حاصل كربلاء، وكان فيها إذ ذاك من زوّار العجم أربعون ألفًا، وفيها زوجة شاه العجم جاءت للزيارة، فخرج الوزير المترجم مسرعًا لإنقاذ الزوار من أيدي الأعراب المفسدين، وانشبك الحرب بينهم، فكانت الهزيمة على الأشقياء، فأرسل بعض عساكره إلى كربلاء، ليأتوا بالزوار إلى [٤٠] بغداد بعدما أزاروهم النجف، ثم توجّه داود باشا بالعسكر لغزو خزاعة، وفي أثناء الطريق، عزل شيخ زبيد، وأقام مقامه الشفلح بن شلال، وألزمه بمحافظة الطريق، ثم تلطّف لمشايخ آل وادي، وبعد مجيئهم إلى العسكر عاقبهم وشنّ الغارة على أهاليهم، فانهزموا وتشتتوا شذر مذر، فغنم الباشا مواشيهم، وسار إلى الديوانية من أرض بني خزاعة، فلما رأى خزاعة العبرة في غيرهم، انقادوا للطاعة، وأتوه طائعين خاضعين طالبين العفو والأمان، وأعطوا الخراج القديم والجديد، وقدّموا الهدايا اللازمة، وانتهت سنة ١٢٣٠هـ ثلاثين ومائتين وألف.

ثم دخلت سنة ١٢٣١هـ (إحدى وثلاثين ومائتين وألف): قتل بنيه بن قرنيس الجرباء الطائي التعلي، وأوتي برأسه إلى سعيد باشا، وزير بغداد، لما بينه وبينه من العداوة، وبنيه هذا من كرماء العرب وشجعانها، حتى إنه كاد يحاكي فارس الثعامة في الفروسية والشجاعة، وأعجب ما فيه الحياء فإن حياؤه يزيد على حياء البنت العذراء، وكانت لا تظهر شجاعته ولا فروسيته إلا وقت الحرب، وهو ينتمي إلى طيء.

النعامة (1)

فصل

في سبب خروج الوزير المترجَم من بغداد وسموِّه إلى أعلى ذرى المجد

اعلم أن الوزير سعيد باشا لم يزل داود باشا ناصحًا له خادمًا له ولأبيه، جاريًا على وفق أوامره، وطالما كابد المشاق في المحافظة على راحة سعيد باشا، وفي المحامات عن ملكه، وطالما سهر الليالي الطوال في غزو العصاة أرضًا، لخاطر سعيد باشا، وذلك شكرًا لما لوالده عليه من النعم، ومثل هذا الوزير جدير بحفظ حقوق الآلاء لما هو عليه من المروءة والشهامة والغيرة والنجدة، وطهارة الباطن، وجزالة الرأي، والوفاء بالمواعيد، وكان داود باشا لسعيد باشا الوالي ردًا وترسًا وساعدًا، فلما رأى أرباب الأغراض تقربه حسدوه وأضمروا بُعده ثم حتى يتم لهم غدرهم بالأمة، ولا زالوا يلقون في حقه عند سعيد باشا أكاذيب ومختلقات، ويدسون عليه مساوىء حلشاة وهو بريء منها.

فوافقهم سعيد باشا لكونه غرًا لا يفرق بين [٤١] صديقه وعدوّه، فأضمر سعيد باشا قتل داود باشا وشاور بعض الناس في هذا الأمر،

فوصل الخبر إلى المترجَم داود باشا، فصار في حيرة، فأشار عليه بعض خلّانه بالتقرب من بغداد لسلامة روحه، ولأنه لا يكمل البدر إلّا بالسري، ولولا التغرب ما وصل الدرّ من البحور إلى النحور، وأنشد:

ولا يقيم بدار الذلّ يألفها إلّا الأذلّات عير الحي والوتد

فخرج من بغداد والإقبال يقول: بشراك بشراك، والتقوى تتلو عليه، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا، لاثني عشرة خلت من ربيع الأول من السنة الرابعة والأربعين من مولده، وهي الحادية والثلاثون بعد المائتين والألف، ومعه مائتان وخمسون فارسًا ممن يبيعون أرواحهم في حبه.

فلما بلغ كركوك كاتب الدولة العلية في طلب وزارة بغداد، وأرسل لهم كتابًا يتضمن من البلاغة أنواعًا يدل على سعة باع كاتبه في جميع العلوم، بل وفي الخفي من السياسيات والجلي، فملأ عيون الدولة، وعلموا أن في العراق رجلًا، وأرسلوا له فرمانًا بأنه والي العراق، البصرة، وشهرزور، وبغداد.

فلما وصل أمر السلطان محمود إليه قبله بالإجلال والإكرام على حسب الرسوم المقتضيا الحال، وفي الحال كتب نسخًا متعددة مجرّدة من صورة ذلك الفرمان العالي الواجب التعظيم والاحترام، وأرسلها إلى من بيدهم الحل والعقد في نواحي بغداد، مثل حمود بن ثامر، والنقيب، والكتخدا وغيرهم من أعيان بغداد لكي تنطفيَ الفتنة بمجرد سماعهم هذا الخبر، فأزمع حمود على الرجوع إلى وطنه، وتخلّى عن سعيد باشا، وقال له: إنا نحميك ما دمت خادمًا للسلطان، والآن ما يسعنا إلّا تأمين أوطاننا، أو أن تسمع نصحنا، فسافر معنا إلى أرضنا فهو أسلم لعاقبة

أمرك، فلم يرضَ سعيد باشا بالسفر مع حمود، بل بقي على زعمه أنه يحارب داود باشا، ويمنعه من دخول بغداد، وما يدري أن جميع العراق ارتجف بمجرد سماعهم اسم داود باشا، فتخلّى حمود عن سعيد باشا، وأسلمه أصدقائه ومحبوه.

وأرسل أكثر أهالي بغداد إلى داود باشا أن اقبل [٤٢] ولا تخف إنك من الآمنين، فأقبل والدنيا تضحك في وجهه، ودخل بغداد دار السلام بعد الظهر، يوم الجمعة، خامس ربيع الثاني سنة خمس وأربعين من مولده، وهي سنة ١٢٣٢هـ اثنين وثلاثين ومائتين والألف، فضحكت أفواه المسرة، وعُدَّ يوم دخوله عيدًا للخاص والعام، وهنّاه الشعراء بالقصائد، فأجازهم واستقرّ على كرسي الحكم، وأجدى السياسة والشريعة على ما هي عليه في الحقيقة، وقتل من قتل في تلك المعركة، وممن قتل فيها سعيد باشا ابن سليمان باشا، وكان قتله على غير رضا داود باشا، ولكن المقدّر كائن.

وفي هذه السنة أمر السلطان محمود محمد علي باشا والي مصر بإرسال عساكر لقطع دابر الوهابيين من الدنيا، ولم يكتفِ السلطان بفتح الحرمين فقط، فسافر إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بعسكر جرار، ووصل المدينة المنورة، وتوجه إلى نجد، وفي مقدمة جيشه أُزن علي على مائتين وخمسين خيّالاً من فرسان الرجال، وكان مع عبد الله بن سعود في تلك الواقعة جيش جرار، ظل يعبىء فيه من حين سمع خروج إبراهيم باشا من مصر، وعدد جيشه في تلك الواقعة نحو أربعين ألفًا.

فأوّل ما التقى من جيش إبراهيم باشا بأزن علي، وكان عبد الله بن

سعود في ألف فارس طليعة لقومه، والجيش خلفه بمسافة ثلاث ساعات، فلما رآهم أُزن علي استقل الألف فارس، وأغار عليهم فورًا بالمائتين وخمسين خيّالاً، وانتشب القتال بينهم، فكانت الهزيمة على عبد الله بن سعود بسبب أن عسكر أُزن علي مع كل عسكري خمسة نيران يحارب بها البندق الذي على كتفه، وطبختان على سرج الحصان، وطبختان في حزام العسكري.

فلما التقى الجمعان أثار كل عسكري خمس رصاصات على كل عسكر ابن سعود، فكان الذي رُمي عليهم في دقيقة واحدة: ألف ومائتين وخمسين رصاصة.

وأما عسكر ابن سعود فأكثرهم عرب يضربون بالأرماح وبالسيوف، ومعهم بعض بنادق، إلاّ أنها قليلة، وجميعها تقد بالفتيلة، فما داموا يتدمون لترليع فتايلهم إلا ودهمهم أُزن [٤٣] علي بخيله ونيرانه، فكان هذا سبب هزيمة عبد الله بن سعود مع الألف فارس الذين كانوا معه، فلما انهزموا التحقوا بجيشهم الكبير، ولكن دخل الرعب في قلب عبد الله بن سعود، لما شاهده بعينه من النيران التي تتلت قومه في لمحة بصر، وعلم أنه لا قدرة له على حرب الروم في هذه الأماكن، خصوصًا، والروم معهم جملة من المدافع، وإلى الآن لم يسمع صواعقها، فكرّ راجعًا بجيشه فتبعه إبراهيم باشا إلى أن وصل الرس، فحاصرها إلى أن فتحها صلحًا، ثم صار قاصدًا عنيزة، ففرّ ابن سعود بجيشه إلى الدرعية بمجرد سماعه وصول إبراهيم باشا إلى عنيزة، وحاصرها فأطاعه أهلها ما عدى قصر يسمى قصر الصفا، شاهق البناء محكمة، فيه من أتباع عبد اللهبن سعود مرابطون، فأنذرهم الباشا، وأمرهم بفتح القصر، فأَبَوا، فرمى عليهم بعضًا من

مدافعه، فهدم القصر على رؤوسهم فصاحوا وطلبوا الأمان، فمنحه إيّاهم، وهم صاغرون، وخلّى سبيلهم ثم ارتحل من عنيزة، ونزل بريدة، فأطاع صاحبها، لما رأى العبرة في غيره، واسم صاحبها حجيلان من بني عليان.

ولنرجع إلى أخبار داود باشا، ففي أول عام من وزارته، أطاعه جميع العشائر من الحاضر والبادي، وامتثلوا أوامره، إلاّ آل وُلَيْم(١)، فإنهم ارتكبوا الفساد والعصيان، فعزم الباشا على غزوهم، فغزاهم بعسكر جرار عليهم محمد بيك الكتخدا، فأطاعوه، وأدّوا ما عليهم من الخراج.

وفي سنة ١٢٣٣هـ (ثلاث وثلاثين بعد المائتين والألف): أرسل علامة العفو إلى أعراب الدليم، واستلم منهم الخراج، وكرّ العسكر راجعًا، فقصد عرب الجربا، ونكلهم خمسمائة ناقة، في مقابلة ما نهبوه من الحديدتين(٢)، ثم رجع الكتخدا، وفي رجوعه غزا آل يسار فغنم جميع أموالهم ومواشيهم.

ولنرجع إلى أخبار إبراهيم باشا المصري، فإنه نهض من بريدة من أرض القصيم عازمًا على قتال ابن سعود، وأخذه مأسورًا إلى السلطان، فوصل إلى «شقرا» من قرى نجد، وكانت غاصة بعسكر سعود، فحاصرها، وامتنعوا من الطاعة، فضربها بالمدافع، وهدم سورها، وهلك أكثر أهلها، فبعد [٤٤] ذلك طلبوا الصلح والأمان، فمنحه إياهم، ودخل البلدة.

فأما ما كان من أهل الدرعية، فإنه خلّى سبيلهم، فلحقوا بدرعيتهم، ولم يبالِ بتقويتهم لقومهم، لما هو واثق به من قوته، وضعّف عرب ابن سعود فارتحل إبراهيم باشا، ووصل القرية المسماة بضرمة، فامتنعت عن

(١) دليم
(٢) الحديديين

الطاعة، لأن فيها جملة من أهالي ديانة الوهابية المتعصبون على دينهم، فأنذرهم الباشا فلم يسمعوا، فصبّ عليهم نيران الأطواب حتى ترك سور بلدتهم كأن لم يكن، فغارت الخيل عليهم من جميع الجهات فأبادتهم إلى آخرهم الرجال والشباب والشيب، ولكن لعفّة إبراهيم باشا، حجز العسكر عن النساء، فسافر إبراهيم باشا قاصدًا بلدة مسيلمة الكذّاب، ألا وهي الدرعية، فأوّل ما وصلها أمر بقطع النخيل، وحاصر البلدة، وطلب من ابن سعود مواجهة السلطان محمود، وتركه لهذه البدعة التي سفكت دماء المسلمين، وأخربت جزيرة العرب، فلم يرضَ عبد الله بن سعود، بل طلب الحرب والنزال والطعن والقتال، فحاصرها الباشا، ورمى على البلدة بالمدافع، وصبّ عليها من الكلل ما يزيد عن المطر، حتى أذلّ البلدة، وأهلك أكثر أهلها، وخرّبها إلى أن صارت قاعًا صفصفًا.

فبعد فتحها بيومين ربط عبد الله بن سعود، وأرسله إلى السلطان محمود، وصار فتحها في التاسع من ذي القعدة الحرام، وهذا الفتح الذي أعزّ الله به الدين.

وفي تلك السنة أرسل داود باشا والي بغداد محمّدًا وماجدًا ابنَي عرع[1] الخالدي الحميدي، ومعهما قبائلهما لأجل فتح الحسا والقطيف، فسارا وحاربا من كان فيها من عسكر ابن سعود، وفتحا الحسا والقطيف بعد حروب طويلة، وفرّ عسكر ابن سعود إلى حيث لا يعلم خبرهم لأنه لا معقل لهم، حتى حيث أخذت الدرعية، وانمحت شوكة الوهابيين من الدنيا، وصار الباقون منهم يتوارون في الأحجار في البوادي كالجرابيع والأرانب حتى إنه ذهب بعض المفسدين.

وحسن إبراهيم باشا المصري أخذ الحسا والقطيف [٤٥] فأرسل من طريقه عسكرًا وعليهم عثمان بيك الكاشف، فخلّص الحسا من يد الخالديين، ففرّ الخالديون إلى بغداد، ففي الحال أرسل داود باشا محضرًا إلى السلطان محمود، يطلب منه أن يعيد الحسا إلى الخالديين، أتباع العراق وبغداد قديمًا، فجاء فرمان السلطان محمود إلى إبراهيم باشا، ومحمد علي باشا، مضمونه ترك الحسا وتسليمها لمحمد وماجد ابني عرعر، فسلمها إبراهيم باشا، ودفع عسكره عنها امتثالاً للفرمان الواجب التعظيم والاحترام، ورحل عنها عثمان بيك الكاشف بدون حرب ولا ضرب.

وفي تلك السنة أخذ قبيلة الصقور العنزيون بالتعدي والمخالفة، وقطع الطرق، ونزلوا غربي المسبب، وخرّبوا ونهبوا، فأرسل داود باشا عليهم عسكرًا، ورئيسهم يحيى الخازندار، وكان غرًّا لم يجرب الحروب، فأول ما رأى خيام الصقور أغار عليهم من غير تعبئة للعسكر، فلما انتشب القتال بين الفرقتين كانت الهزيمة على العسكر ويحيى بيك، وأُسر من عسكره جملة، فرجع إلى بغداد مخذولاً مهزومًا.

ولما سمع مشكور الشمري كسرة عساكر الباشا، اغترّ وطمع، وشرع في الإفساد وقطع الطرق، فجهّز عليه داود باشا سرية من عسكره، ورئيسهم محمد بيك الكتخدا، فغزاهم ولما قرب من رحالهم وسمعوا به ركبوا متن الهرب، وطاروا إلى الفيافي والقفار، فنهب الكتخدا ثمانية آلاف شاة من غنمهم، ومائتين من الإبل، ورجع إلى بغداد منصورًا بالغنائم معه.

وفي سنة ١٢٣٤هـ (أربع وثلاثين ومائتين وألف): أمر الوزير داود باشا صالح آغا الكردي أن يخرج إلى النجف بطائفة من العسكر لتأديب بعض طوائف هناك خارجين عن الطاعة، ويلزمهم بالخراج كسائر العشائر، فتوجّه صالح آغا الكردي، فلما بلغ المشهد تقاتل هو وابن دبيس، فكانت الهزيمة على ابن دبيس وقومه، فقطع رأس ابن دبيس وأرسله إلى بغداد، وأرسل الباشا خلعة تولية مشهد علي إلى محمد طاهر أفندي.

ثم إنه بلغ الباشا أن جليحة وعنك والصقور عادوا إلى الطغيان وسلب [٤٦] الأمنية، فجهّز عليهم عسكرًا، ورئيسهم محمد بيك الكتخدا في ثاني المحرم الحرام، فلما وصلوا إلى ذي الكفل عليه السلام، ورد عليهم ابن قُعَيْشِيش حمدان وابن هدال[١]، وابن أخيه فواز، وخمسة عشر رجلاً من كبرائهم، فما وسع الكتخدا إلاّ أنه كبلهم بالحديد وأرسلهم إلى بغداد، فانتظمت أمور المملكة، وسكنت الفتنة، وشاع الأمن في الرعية.

① هزال

وفي أثناء زحف الكتخدا بلغه أن عرب ابن هدال وعبد الله بن حريمس من عنزة أقبلوا في عيرٍ ليكتالوا، فأمر الكتخدا شيخ خزاعة، وشيخ البطيح أن يستأصلا ذلك العير، ونزل العسكر الديوانية، واشتغلوا بنصب الجسر منتظرين خزاعة والبطيح المأثورين بقتالهم، فبلغ الكتخدا أن الفريقين التقوا على غير ميعاد واشتغلوا بالقتال من الصبح إلى المساء، فكانت الهزيمة على عنزة، وغنم منهم الخزاعيون إبلاً، ووفدوا على العسكر بالغنائم، وارتحل الجميع وعبروا اليوسفية الحائلة بين العسكر وبين جليحة وعنك، فاجتمعت القبيلتان على قتال الكتخدا.

فلما التقى العسكران، ونشب بينهم الحرب، فأما جليحة فبعض القبيلة أطاع، والبعض الآخر هلك، وأما عنك ففرقة انهزمت، وفرقة دخلت قلعة شحير، فقرب منها العسكر في الثامن والعشرين من شهر صفر، فأنذرها الكتخدا ولم تغن النذر، فرمى عليها بالأطواب، وصمم على هدمها، فلما تيقن أهل القلعة تصميمه هربوا ليلاً هم وعيالهم، وتركوا الأموال والأثقال، وفي الصباح هدمت القلعة، وصارت أموالهم غنيمة، وذلك بعدما أحكم من اليوسفية السد وألبس المشايخ الطائعين خلعًا، والتزموا بأداء خمسين ألف درهم، وعيّن لاستيفائها منهم شيخ خزاعة، وجعل على السد عقيلاً واللاونة، ورجع إلى بغداد في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وقبّل أعتاب الوزير المشار داود باشا والي بغداد فألبسه خلعة من السمور تليق بأمثاله.

وفي سنة ١٢٣٥هـ (خمس وثلاثين ومائتين وألف): تمرّد آل دليم، فجهّز [٤٧] عليهم الباشا عسكرًا، وأمّر عليه الكتخدا، فسار إليهم وحذّرهم وأنذرهم، فلم تغنهم النذر الأربعة منهم من مشايخهم أطاعوا فأمنهم الكتخدا وقبلهم، وتحصّن الباقي بالأقيال مزمعين على القتال، ففي يوم الثلاث، عاشر ربيع الآخر، انتشب القتال بين الفريقين من طلوع الشمس إلى بعد الزوال، فهبّ رياح النصر على العسكر، وقتلوا العصاة أشرّ قتلة، وأكثر الأشقياء غرق في الدجلة، وسبوا نسائهم وزراريهم، ونهبت أموالهم وأمتعتهم، فأرسل الكتخدا للباشا يبشّره بهذا النصر، فردّ عليه الباشا جوابًا مستصوبًا أفعاله، حامدًا شجاعته وخصاله، وبعد ذلك عزم الكتخدا على تأديب قبيلة زوبع وجميلة وآل عيسى، وأهل قرية شثاثي، فإن الجميع بدت عليهم آثار الخروج والعصيان، ومنعوا

الخراج، فلما قصدهم الكتخدا، فأما قبيلة زوبع فركبت متن الفرار إلى البوادي والقفار، وأما جميلة وآل عيسى فاستقروا في الديار، والتزموا بأداء مبلغ نقدًا جزاء لأفعالهم، وأما أهل قرية شفاثي فأدّت الخراج صاغرة ذليلة، وطلب الجميع الأمان والعفو، فمنحه إياهم، ثم رجع الكتخدا إلى بغداد مظفرًا منصورًا.

وفي تلك السنة سكن محمد باشا ابن خالد باشا كركوك، فأساء خدّامه على قطّانها، فتشكوا أهل كركوك إلى الوزير المترجم، فأرسل الوزير إلى محمد باشا ابن خالد باشا ليزجر خدّامه عن المفاسد والتعدي على الرعايا، فما امتثل أمر الوزير، ولا ارتدع، فأرسل إلى متسلم كركوك موسى آغا أن يقيِّد محمد بيك ابن خالد باشا بالحديدة، ويرسله إلى بغداد، وحبسه في السراية دار الإمارة.

فلما علم خدّامه أحاط ثلاثمائة منهم بدار الإمارة، وفكّوا سيدهم من الحديد قسرًا، فمذ بلغ محمد باشا ما كان على والده وابن عمه ندم على ما فعله، فلم يذهب لذلك إلى العجم، وأرسل الباشا يعتذر فيما صدر منه، ويسترحم الوزير في فك أبيه وابن عمه، فشرط عليه الوزير [٤٨] أن لا ينزل كركوك، وأن يمنع خدّامه من التعدي على الفقير والغني، وأنعم على أبيه وابن عمه بما يقوم بكفايتهما.

وفي هذه السنة ختن يوسف بيك ابن الوزير المترجم والي بغداد داود باشا، وختن معه ألف يتيم، ونثر الدرر والجواهر للناثر والشاعر وهنأ أبوه المترجم بقصائد غرر، وعُدَّ يوم ختانه عيدًا على جميع الأهالي خصوصًا الفقراء والغرباء.

وفي سنة ١٢٣٦هـ (ست وثلاثين ومائتين وألف): وهي الرابعة من حكومة المترجم: أرسل السلطان محمود إلى الوزير المترجم هدية إلى بغداد في غرّة صفر، فأمر الوزير أن يستقبلها الكتخدا ورؤساء العساكر، وأنزلت في القلعة، وأكرمت من صاحبها.

وأما محمد بيك بن خالد باشا الكردي بعدما عفى الوزير عنه أخذ يعربد في الفساد، ورحل إلى كرمان عند واليها محمد علي خان القجري، فحبس والي بغداد أباه خالدًا باشا ليمنع ابنه من الفرار إلى بلاد الرفض، وعندما تحقق يحيى أفندي الخازندار أن محمد بن خالد باشا فرّ إلى العجم أخذ يلحم ويسدي في الفساد، وإضرام نار الفتنة لما بينه وبين مقاصده فحالاً حبسه ثم قتله، ولإبراز الأبّهة، وإظهار القوة العسكرية، خرج الوزير من بغداد في جيش جرار، ووصل إلى فريحات ليعلم الأضداد أن الليث ليس بنائم ولا غافل، وأقام للصيد أيامًا، وأرسل أخاه الأمير أحمد بيك ليرهب به الأعداء، فلما علم صاحب كرمان بخروج الباشا رجع إلى كرمانه بجيشه وخسرانه، ورجع الوزير داود باشا إلى بغداد.

وأما سليمان بيك ابن إبراهيم باشا فانهزم إلى العجم لما كان يخفيه من سوء السريرة، وأما خالد باشا الكردي المأسور فإنه لما تحقق الباشا أنه ليس له دخل في فتنة ابنه فكّه من القيد، وأطلق سبيله، وقال: ولا تزر وازرة وزرة أخرى.

وممن انهزم إذ ذاك إلى العجم عبد الله باشا الكردي في مائتي فارسًا من كرده، ولما اجتمع هؤلاء الأمراء الأكراد عند والي كرمان أخذوا يثيرون الفتن، ويعيثون في الأرض بالفساد، ويعاونهم في الباطن والي

كرمان، فمن شرّهم أنه [٤٩] غزا محمد بيك ابن خالد باشا قولاي وعلباد وخانقين، فقلل من أهلها ونهبهم ورجع إلى بلدة ذهاب، فأرسل الوزير إليهم سرية من العسكر، فلم تلحقهم، وكلما خاطب الوزير والي كرمان ينكر أفعال أمراء الأكراد ويتبرأ منها مع أنه أساسها وموقد نارها لما بينه وبين أهل السنة من العداوة.

فلما يحيى الباشا أرسل إلى الدولة العلية يطلب منها الإذن في محاربة العجم جمارا فجاءه المنشور من الدولة وفيه الإذن بالحرب فحينئذٍ أمر الوزير عسكر اللاونة والأكراد أن يجتمع منهم ألف وخمسمائة خيال، وينتظرون في الزنكبار، فحضروا وانتظروه فلَمْلَمَ عساكره وجموعه وقال: من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه، وبلغ وزير بغداد أن والي كرمان أعطى مملكة الأكراد إلى عبد الله باشا الكردي وأنه جهَّز معه خمسة عشر ألفًا من العساكر لمعاونته، ولإخراج محمود باشا الكردي، فأمر والي بغداد أن يسير محمد بيك الكتخدا مع العسكر لطرد أهل الفساد ولنصرة محمود باشا، فسافر بعسكره والتحق بعسكر اللاونة، وجلس ينتظر أمر محمود باشا، فظلّ أربعين يومًا حتى ورد عليه أمر من محمود باشا يأمره فيه باللحوق به، فإن والي كرمان أرسل مع عبد الله باشا خمسة عشر ألفًا من العساكر لأخذ السليمانية، خصوصًا حيث خان أمير الجاف، ولحق عبد الله باشا فصار محمود باشا في حيرة من أمره إلى أن وصله الكتخدا بعسكر الباشا، فقوّى عزائمه، وشدّ ساعده، ولكن صار المدد يترادف على عبد الله باشا من طرف والي كرمان، فأخذ يخرِّب القرى، وينهب ويفسد المزارع، ونهب من كان في نواحي الزنكباد من الرعايا.

فبلغ الوزير هذا الخبر فأرسل أخاه أحمد بيك بعسكر، وما كفاه

ذلك حتى لحق بنفسه ليساعد العساكر بهمته، ويطفىء نار الفتنة، وأرسل إلى محمد بيك الكتخدا يأمره فيه سرًا أن يلحقه بعسكره، فإنه إذا اجتمعت العساكر في نقطة واحدة يشتد فعلها، وتكبر شوكتها، فكتب إلى الباشا [٥٠] يعتذر إليه بأعذار باردة توجب تخلفه، والحال أن ما مقصد الكتخدا إلاّ الخيانة والانضمام إلى عسكر العجم، لكن ما أحبَّ إظهار الخيانة إلاّ بعد أن يهلك جميع عساكر الباشا، وعساكر الدولة.

فلما استشعر عبد الله باشا بخيانة محمد الكتخدا صار عنده عيدًا، فرحل ونزل قريبًا من عسكر الكتخدا فأراد الكتخدا المحاربة ليوقع العساكر السلطانية في هوة الهلاك، فنصحه جملة من كبار العساكر أن لا يحارب في هذا الوقت، بل يلتحق بعسكره إلى الوزير داود باشا فأبى أن يسمع كلامهم، وتجمعت عساكر العجم مع عبد الله باشا ومعهم والي كرمان، وكانوا خمسة عشر ألفًا، وعسكر الكتخدا الخائن ثلاث آلاف، فانتشب القتال بين الفريقين ساعتين فقط، فكانت الهزيمة على الكتخدا.

وأما هو فلحق بالعجم مكرمًا معززًا لما بينه وبينهم من المباطنة، فعظم البلاء على المسلمين، وفي تلك الأيام وقع وباءٌ عظيم، كاد أن يفنى أهل البصرة، وقد والله كنت إذ ذاك في البصرة، وشاهدت الهول، والناس أيقنوا بالتلاف، وتأسفوا على ما كان من أعمالهم، فكأنهم حشروا ونشروا، تراهم تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، وهو طاعون كما ذكره الإمام النووي أن من علامات الطاعون القيء والإسهال، ولكن صاحبه لا يبول فمتى بال سلم، وقد كان لا يسلم، واستمر في البصرة من آخر شوال إلى آخر القعدة، ثم خف إلى أن أزاله الله بفضله، وصاحبه تعتريه حرارة عظيمة ظاهرًا وباطنًا، فبعضهم

يلقي نفسه في الماء البارد من شدّة الحرارة، وليس له دواء ينفع، وأول ما وقع في البصرة هبت الشمال نهارًا، ومات فيه من أهل البصرة أكثر من عشرة آلاف وصار هذا الوباء عامًا في أقطار جميع العراق.

وفي سنة ١٢٣٧هـ (سبع وثلاثين ومائتين وألف): وهي السنة المتممة للخمسين مدة مولد المترجم ركب محمد بيك الكتخدا متون الخيانة، ولحق بدار الرفض سوّلته له نفسه أن يكون والي بغداد، حتى أغوى والي كرمان على موافقته [٥١] فأخذ في شنّ الغارات على أطراف بغداد، وسار إلى كركوك وقاتلهم وقاتلوه، وصبروا صبر الكرام، ثم تركهم وزحف إلى أطراف بغداد ومعه جملة كبيرة من عساكر العجم والأكراد إلى أن نزل قريبًا من بغداد بثمان ساعات في ملّي عباس، وقد كان الوزير أخبر الدولة بهذه الهزيمة التي صارت على العساكر، وبخيانة الكتخدا محمد بيك وبلحوقه بديار العجم، وأخبرهم أن والي كرمان مجمع الجموع، ولا يرجع عما في ضميره إلاّ بمحاربة بغداد.

ولما قرب عسكر العجم بغداد ولم يخرج إليهم الوزير، ولم يرسل إليهم عساكره بل ظل محافظًا لأسوار البلدة بغداد، وفي أثناء المحاصرة غزا محمد الكتخدا بجملة ممن معه من عساكر الأكراد قرية الخالص، ونهب منها أربعين ألف رأس غنم، وخرب بساتين الخالص، ثم رجع بكرّه والتحق بجيش العجم وكان أرسل والي كرمان سرية نحو ألف فارس لجلب الميرة، فلقيهم صفوف الجرباء وبدد شملهم وغنم أسلحتهم وخيلهم.

ولما سلم رئيس عرضي العجم من المحاصرة، ولم يستفد شيئًا منها

خاف أن يحصل مدد لداود باشا، فيبدد شمل عسكر العجم، فما وسع رئيس عسكر العجم إلاّ أنه أشار إلى طلب الصلح، فأرسل الوزير من طرفه محمد بن أبي دبس، ومحمد بن النائب تلميذه لأن يعقد الصلح مع والي كرمان رئيس العرضي.

فلما تفاوضا معه في هذا الشأن شرط رئيس العجم أنه أولاً يعطي الوزير لواء بابان لعبد الله باشا الكردي، ويعطي لواء كوى وحرير لمحمد بيك بن خالد باشا، وأن يرسل الوزير الخلعتين الآن، وأن يعفوَ عنهما، وتولية العاصي وإن خالفت فرحان السلطان، إلاَّ أنه يرى الحاضر ما لا يرى الغائب، فداود باشا رأى المصلحة في الصلح اقتفاءً بالرسول ﷺ في وقعة الحديبية، فاستشار داود باشا أعيان خدمته، وأعيان بغداد، فكلهم أشاروا بالصلح، فأخذ منهم سندات بأن لهم الرغبة في الصلح، فحينئذٍ أمضى على أمر الصلح، وأرسل الخلعتين إلى الواليين المذكورين، فتمّ الصلح، ورحل عرضي العجم، وردَّ من المنهوبات نحو عشرة آلاف من المواشي [٥٢].

وفي أثناء سفر رئيس عرضي العجم مات وهلك، فصفت الدنيا لداود باشا وسالمته جميع الأعداء، وهذا من علامة سعده، وإن حظه لا زال في إقبال، وفي أيام نزل والي كرمان قريبًا من بغداد، دخل سكان القرى خوفًا من القتل والسلب، فصاروا يتأوون في المدينة للاطمئنان، ولكن بحمد الله لم يغلِ سعر الأقوات قط، بل سعرها صار أرخص من الأول، وهذا بسبب سياسة الوزير.

ومثل بغداد بلد كبير لا يمكن حصارها على الوج الأتمّ، لأنها مدينة

الوجه

كبيرة، ولها طرق متعددة، والبحر الحلو متخللها، فلا يمكن ضبطها من كل الوجوه فأهلها لا يزالون شبعانين زيانين، فلهذا أيس العجم من محاصرتها، وطلب الصلح، فلما انتهت مدّة الحصار رجع سكان القرى إلى أوطانهن، ورفع الباشا عنهم الخراج في هذه السنة لما أصابهم من الضرر.

ومن جملة من طغى وبغى في أيام الحصار بعض الأعراب، فصار ينهب ويخرب بعض الأماكن، فنهب من رعايا الدجيل[. . .][1] على ذلك أرسل الوزير المترجم سرية لتأديبه ولرد المنهوبات، فردّ المنهوبات، ورجع عن طغيانه، ومن حين سفر عرضي العجم من بغداد أخذ داود باشا يلملم أحواله، ويعبىء جيشًا جرارًا لأخذ الثأر من العجم، لكنه صار ينتظر أمر الدولة العلية ليجاوبه عما سألهم فيه من المدد بالعساكر، فما شعر إلاَّ والأوامر السلطانية عليه، وعلى والي ديار بكر رؤوف باشا، وفوّضت رياسة العساكر جميعًا لداود باشا، وأن يتوجه هو والعساكر جميعًا لمحاربة الشاه عباس بن شاه العجم، وصحبهم أيضًا عسكر من الأناضولي، ووالي الموصل أيضًا بعسكره.

فلما تجمعت العساكر ورد أمر آخر سلطاني ومعه كرك سمور هدية من السلطان إلى داود باشا، وبحثّه فيه على أنه لا بد من إهلاك الخائن محمد الكتخدا، وأن يصرف في طلبه جهده، حتى يكون عبرة لغيره من المارقين الباغين، وهذا الفرمان مع الكرك، ورد مع أحد خدّام السلطان المسمّى خاصكي إبراهيم أفندي.

---

(١) كلمة غير مفهومة.

وفي سنة ١٢٣٨هـ (ثمان وثلاثين ومائتين وألف) [٥٣]: غزا صفوف بن فارس الجربا الشمري الأمير عباس بن شاه العجم، وعبر نهر ديالة بفوارس شمر إلى أن صار بمرأى من عساكر الشاه، فركب عليه فرسان العجم، وكرّوا عليه فاستطردهم حتى عبروا نهر ديالة وبعدوا عنه، فعطف عليه شمر وصفوف الجربا، وشدّوا عليهم شدّة الأمور على القراش، فأدبرت فرسان العجم، وقفاهم فوارس شمر، وقتلوا منهم من أدركوه، وأتوا بخيلهم وسلبهم.

وأخبرني غير واحد أن هذه الواقعة غير الأولى التي ذكرها المؤرخ التركي، ولأجل هذه الخدمة التي خدمها صفوف الجربا، والنصرة التي نصر بها سيد الوزراء، أنعم عليه داود باشا ببلدة عانة، وما تابعها من القرى، وهو إعطاء لم يسمع بمثله إنما هذا الوزير أراد أن يشتري الأحرار بدل العبيد.

وفي هذه السنة (١٢٣٨هـ): وقعت واقعة بين سكان بلدة الزبير، وكانوا قبلها يدًا واحدة على من قصدهم بشر، حتى فشا بينهم ضربان الخلاف، ففرّق ائتلافهم وأوقع بينهم الحسد والبغضاء، وذلك أن محمد بن ثاقب بن وطبان يحسد يوسف بن زهير على ماله، وعلى ما أنعم الله به عليه، ولاستعباده أشراف الناس بسماحه وغواله، فادّعى ابن ثاقب على ابن زهير دعوى يكذبها من له أدنى عقل، وتلك الدعوى أن يوسف بن زهير أمر بسمّ راشد بن ثامر، وصدّقه في دعواه بعض المغفلين، وأفشاها من يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وكل هذا إرضاء لآل المنتفق.

وكان ابن ثاقب قبل دعواه مصطفيًا بعض أوباش أوغاد عقول لهم لأن يعينوه على أخذ يوسف بن زهير وتسليمه إلى حاكم البصرة، فسعى ابن ثاقب إلى حاكم البصرة فصدّقه المغفل من غير أن يقيم دليلاً على صدق دعواه، خصوصًا والدعوى على غائب لا تسمع، فالمتسلم رفع القصد إلى داود باشا، فلما شاع خبر السمّ أخذ يوسف بن زهير في التحذر، وانضم إليه كل من له عليه معروف، وتحيّز في بيته من يغضب لغضبه، ويعيش بسببه.

فلما علم ابن ثاقب أن عدوّه تحذر وأنه في حصن من [٥٤] الرجال لا يمكن افتراسه، ولا يمكن إيقاع المكيدة به، أمر الزمرة الأوغاد التي اصطفاهم أن يهجموا بسلاحهم ليلاً على ابن زهير في داره، فلما مدّ الليل رواقه تجمعوا وأرادوا الهجوم على ابن زهير فأحسّ بهم خدّام ابن زهير قبل أن يصلوا إلى باب داره، فتقاتلوا وقتل من أتباع ابن ثاقب، وانهزم الباقي، ورجعوا خائبين، ثم دخلوا البصرة، فأُخرجوا منها بأمر داود باشا حذرًا من تفاقم الفتنة وضرر الناس.

فنزل ابن ثاقب وأتباعه قريبًا من نهر معقل، ومتسلم البصرة إذ ذاك محمد كاظم أفندي، فما زال ابن ثاقب في منزله حتى هجم عليه رجال كثيرون في الليل، وأرادوا قتله فانشبك القتال بين الفريقين، وقتل من قدر الله عليه بالشقاوة، إلاّ أن ابن ثاقب سلم وانهزم حتى عبر الفرات، وجعل يكاتب من يساعده من أصحابه، وأكثر من كان يساعده سرًا وجهرًا متسلم البصرة محمد كاظم أفندي، فإنه صرف في تأييده جهده، وكثيرًا يخبر الوزير المترجم بصحة دعوى ابن ثاقب، ولما ورد حمود بن ثامر من البادية خدع يوسف بن زهير بمودته.

فلما ورد عليه وصار في قبضته منعه الانصراف، وركب معه الاعتساف، وبقي عنده مدّة حتى مَرِض من شدّة القهر أو من أمر آخر أعلم به، فلما اشتد به المرض أذن له بالانصراف، فما دخل البصرة حتى قبض رحمه الله، كان ذا صدقات وأعمال برّ وعفّه عن المحرمات وسيرة حسنة مذ شبّ إلى أن مات، وهذا ما أعلمه والله يتولى السرائر.

ومما وقع في تلك السنة انتصار الدويش على بني خالد، وذلك أنه وقعت معركة بين الدويش من قبيلة مطر وبين خالد بن عرعر، فكانت الهزيمة على الدويش، وركبوا متن الهرب واقتفى أثرهم بنو خالد، والغلبة في الظاهر لبني خالد إلى أن نزل الدويش على ما يسمى الرضيمة، واستقوا ورَيّوا، وبنو خالد على غير ماء، ولهم أيام وهم في الطراد، فمالَ عرب مطر بينهم وبين الماء، واشتد بينهم الطعّان والجلاد، فتضعضع الخالديون من شدّة العطش [٥٥] وعلموا أن الكثرة لا تنفع إذا لم يصحبها الرأي، فغنم مطير أموالاً وخيلاً، وعظمت شوكتهم في البادية، وهذا اليوم يسمى يوم الرضيمة وممن قتل في هذا اليوم من كبار العرب حباب من البرزان، قتله مشعان بن مغيلث بن هذال، وممن قتل أيضًا مغيلث أبو مشعان، وممن قتل من سادات بني خالد دجين بن ماجد بن عريعر، وأعظم الناس من جانب بني خالد قتلى القبيلة المعروفة ببني حسين، وممن قتل في ذلك اليوم خزيم بن لحيان من كبار قبيلة السهول قتله أشجع بن خالد، وبلغني من الثقات أن (المطيريون ماجد بن عريعر الحميدي شيخ بني خالد[١] قالوا لسلامة حباب

---

(١) من ركب الخيل من العرب في أيامه سدران هو من الصقور من عنزة.

وخزيمة بن لحيان [...][1]) أحب عندنا من غلبتنا لبني خالد ولنودّ أن لا يبقى لنا خف ولا حافر، ويسلم ذلك الرجلان لها فيهما من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم والشجاعة.

حاشيه غير مفهوم

وأما المطيريون فهم قحطانيون على ما ظهر لي من كتب الأنساب،

ومن وقائع تلك السنة يوم بصالة وهو لقبيلة شمر علي بن هذال من عنزة كبيرة عبد الله بن هذال، وكبير شمر صفوف الجربا الشمري الزوبعي، وكانت الغلبة لشمر على العنزيين، واستولى الشمريون على هودج بنت هذال، ونهبوا أموالهم، ولما عبر ابن هذال الفرات استغاث بقبائل عنزة لأخذ الثأر وغسل العار، فاجتمع العنزيون وعبروا الفرات إلى الجزيرة ثم ساروا قاصدين شمر.

ودخلت سنة ١٢٣٩ (تسع وثلاثين ومائتين وألف): فالتقوا في موضع يسمى الشيخة، وبقوا أيامًا والحرب مشتعلة بينهم، والطعن والقتل كل يوم، ثم في آخر الأيام التقوا من الصبح إلى المساء، فكانت الهزيمة على شمر ونهب العنزيون أموالهم.

وممن قتل في هذه الواقعة من فرسان شمر مطرب بن حمد الأسلمي بن خطاب، ولما انكسرت قبيلة شمر شدّ الوزير داود باشا عضد كبيرهم، وأعطاه عطاءً لم يسمع بمثله ولا يصدقه العقل، دالٌّ على أن هذا الوزير هو حاتم الوقت، ومن كرمه [٥٦] أنه قضى دين مولانا الشيخ خالد النقشبندي الشهرزوري، ودفع عنه دفعة واحدة ثلاثين ألف غازي، غير ما أعطاه متفرقًا قبلًا وبعدًا.

---

(١) كلمة غير مقروءة.

وفي سنة ١٢٤٠هـ (أربعين ومائتين وألف): جهز السلطان عرضي عسكرًا جرار لمحاربة المورا وهي من بلاد اليونان وأصلها كانت في حكم الدولة العلية، فلما سعت الدولة بقتل بعض الينكجرية عصت المورة ورامت الاستقلال والخروج عن طاعة الدولة العثمانية، وممن خرج بعسكره معاونًا للسلطان محمود إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر فتوجّهوا للحرب ونصرهم الله، وفتحوا جملة بلدان من المورا ونهبوا وسبوا، واستمر الحرب فيها إلى سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين، وبعدما فتحوها جملة، أعان أهل المورا جميع نصارى الدنيا من جميع دول الإفرنج على خروجهم عن حكومة الدولة العثمانية واستقلالهم، وكانت الدولة العثمانية إذ ذاك قليلة العساكر لأنه أثر قتله الينكجرية فما وسع الدولة إلاّ الصلح بخروج المورا عن تسلط بني عثمان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

وفي آخر تلك السنة تحرّك محمد بيك الكتخدا وشرع في الإفساد وانضم إليه جماعات من رعاع الناس وسفهائها، وادّعى وزارة بغداد، ودخل الحلة وملكها، وإنما دخلها باستدعاء المفسدين من أهلها، وبعض أوبائها،(1) فلما بلغ الوزير المترجم نقض أهل الحلة العهد جهّز عسكرًا وقصدها لإخماد نار الفتنة.

(1) أوباشها

فلما قرب الحلة التقى عسكره مع عسكر الكتخدا، ونشب بينهم القتال، وممن أظهر الشجاعة في ذلك اليوم من عسكر الباشا عقيل وتبينوا فيه وأدوا سيوفهم من دم البغاة، ففي آخر النهار كانت الهزيمة على عسكر الكتخدا، وقتلوا شرّ قتلة، وتشتتوا شذر مذر وفرّ محمد بيك الكتخدا،

والتجأ إلى حمود بن ثامر فلم يقبله ففرّ إلى أن وصل الجويزة، فاستقر هناك، وأما عساكره ففروا وعسكر عقيل خلفهم إلى أن عبروا الجسر، فعبر العقيليون الفرات، ودخلوا الحلة، وأذاقوا أهلها كأس الممات، ونهبوا البلدة وهتكوا حرمتها لما ارتكبه أهلها [٥٧] من الخيانة، ونقض العهود، وكانت هزيمة الكتخدا التي أذله الله بها وخذله في أول سنة ١٢٤١هـ إحدى وأربعين ومائتين وألف.

وفيها ورد على الوزير المترجم محمد بن عبد العزيز بن مغامس، ومحمد هذا من أجواد العرب وشجعانها، فأكرمه الوزير وأعزّه ورفع منزلته، لأن محمد كان قبل ذلك منضمًا إلى ثويني بن محمد بن مانع شيخ المنتفق، وكذل عند حمود بن ثامر، ثم تغيّر خاطره على حمود فقصد الوزير يستظلّ بكرمه، فلما رأى إكرام الوزير له ترشّح لمشيخة المنتفق، لكن لم يوافقه الوزير على ذلك، لأنه كان وعد بها ابن ثويني، لأن أباه كان شيخًا على المنتفق وكذلك جدّه عبد الله وجد أبيه محمد وجدُّ جدِّه مانع، والملوك من شأنهم رفع ذي البيوت وذي الشرف.

وفي هذه السنة قدم على الوزير حنيان بن مهنا بن فضل بن صقر أحد أكابر آل شبيب، فأكرمه الوزير وأجزل عطاه، ولما اجتمع هو ومحمد بن عبد العزيز بلغني أن الوزير عزم على عزل حمود ونصب براك بن ثويني على بني المنتفق، فعرضت أحوالٌ فأخر ذلك.

وفيها قدم على براك بن ثويني جماعة من آل صالح وهم شبيبيون، وقدم عليه أيضًا محمد بن مناح الأجودي العقيلي أحد مشايخ بني المنتفق وفرسانهم، وقوّى براك بن ثويني بهم، وتوجّهت إليه أنظار الوزير وكاد

يولّيه رياسة بني المنتفق إلاّ أنه أخّرها لمصلحة.

وفي تلك الأيام أرسل حمود بن ثامر إلى محمد الكتخدا، وهو في الحويزة فقدم إلى العراق لإثارة الفساد، وأمر حمود خفية آل قشعم وآل حميد وآل رفيع أن يساعدوه لكونهم ساعدوه لما دخل الحلة، فلما انهزم انهزموا إلى آل المنتفق لخيانتهم.

وفي هذه السنة غز براك بن ثويني ومعه آل شبيب عفكًا وابن شاوي قاسمًا ومن معهم من البغاة، فتحصنوا بالمياه، وخاض المنتفقون المياه، وقتل من أكابرهم وفرسانهم دويحس بن مغامس بن عبد الله بن محمد بن مانع الشبيبي، وقتل أيضًا ابن الثامر بن مهنا بن فضل [٥٨] ابن ستر وهو شبيبي، وكان مع براك بن ثويني شيخ زبيد فلم تكن منه مساعدة لعدم إخلاصه في خدمة الباشا.

وفي هذه السنة أمر أمير المؤمنين السلطان محمود أيّده الله على الجند المسمّين بالأنكجرية بالقتل، وقتل منهم الوفاء[1] ونسخهم من ديوان الجند، وكتب إلى سائر ممالكه أن يعزلوهم، ويمحوا هذا الاسم من الدنيا، وبعدها غضب السلطان أيضًا الددوات البكتاشية الكائنين في إسلامبول، بل وفي سائر أحكامه أن يطردوهم من تكاياهم، وينفوهم لكونهم روافض.

فلما ورد الأمر على مولانا المترجم أخلى التكايات من البكتاشية، وطهرها من الرفض، وولّى عليها أحد خدّامه خليل أفندي، فولّى إمامه السيد طه الحديثي بتكية الددوات في بغداد، ولكنه عزله بعد ثلاثة أيام.

وفي سنة ١٢٤٢هـ (اثنين وأربعين ومائتين وألف): قدم بغداد

(١) صقر [handwritten margin note]

(١) الألوف [handwritten margin note]

الشيخ عقيل بن محمد بن ثامر، فأكرمه الوزير وألبسه خلعة ولاية بني المنتفق في الرابع عشر من شهر صفر وأعطاه حُللاً وسلاحًا وسيوفًا ودراهم ليهادي بها قومه، فلما ألبسه الخلعة، وتوجه كتب الباشا إلى متسلم البصرة إنا خلعنا حمودًا من الإمارة، وولّينا عقيلاً بدله، فأظهرْ هذا الأمر عندك، وقم على ساق الجد في حماية البصرة، وما والاها، فمذ وردت على المتسلم تلك الأوامر أظهره، وأخذ في التحذر.

فلما تبيّن لحمود عزله خف عقله وطاش لبّه، فأمر بنيّه ماجدًا وفيصلاً أن يقصدا البصرة ليستوليا عليها، فزحفا عليها بعشائرهما، وندبا لمحاصرتها كل رافضي وإباضي، فأما ماجد فإنه نزل قريبًا من نهر معقل، وأما فيصل فنزل دباسلّال ومعه الإباضية من أهل مسقط، والروافض قبيلة كعب، فخرج عليهم من طرف والي البصرة عسكر عقيل، ونشب القتال بين الفريقين، واشتدّ وحمي الوطيس، وأظهر عسكر الباشا الشجاعة التامة، فكانت الهزيمة على عرب المنتفق، لكن لما كانت داخل المقتلة التخيل استشهد جملة كثيرة من العسكر العقيليون النجديون، ثم رجعوا إلى البصرة [٥٩] منصورين غانمين.

وبعد هذه الواقعة اشتدَّ عضدهم مع أن فيصلاً بن حمود لم يبق أحدًا من طلّاب الشر إلاّ اشتقات به ولا عدوًا لأهل البصرة إلاّ استنجد به مع أن إمام مسقط ملأ الشطّ بالسفن وساعد ماجدًا وفيصلاً برجاله وسفنه.

هذا ولما رأى متسلم البصرة ضيق الحال وكثرة الأعداء صالح إمام مسقط بما اقتضاه رأيه، وعقد معه الصلح، فسافر وبقي فيصل وماجد بلا مساعد إلاّ بعض غواة شياطين وأباش لا خلاق لهم ولا ثبات لهم، وفي

أول ربيع الأول خرج عقيل من بغداد قاصدًا محل مأموريته سوق الشيوخ، ومما يدل على إقبال سعد الوزير أنه في هذه الأيام وردت بشرى برؤوس قبيلة الأقرع، وذلك أن المناخور سليمان أفندي كان محاصرًا للأقرع، ومعهم ابن قشعم وقبيلته ومحمد بيك الكتخدا وجنده ورستم وغيرهم من أهل الفساد الروافض، وكان مع سليمان أفندي قبيلة زبيد المعروفة من كيلان، وعسكر عقيل وشيخهم جعفر بحيث أن عدد عساكر سليمان أفندي على العشر من أعدائهم، لكن مع سليمان أفندي أطواب معدة، فلما التقى العسكران، ونشب القتال بين الفريقين أرعدت عليهم الأطواب كالصواعق وحصدتهم حصد الزرع فانهزم عسكر الأشقياء، وفر الكتخدا وشياطينه، فغنموا منهم العسكر غنيمة كبيرة.

وبلغني ممن أثق به أن من قتل في ذلك اليوم من عشيرة الأقراع يزيدون على الألف، بل قيل ألفين، ولما وردت البشرى على الوزير ومعها رؤوس الشياطين أمر ببناء ضارتين من تلك الرؤوس ليكونوا عبرة لغيرهم ثم إن عقيلاً أقام في أرض عنك زمانًا طيلاً تأميلاً أن يأتيه أكابر قبيلته، والوزير المترجم كان ينهاه عن العجلة، ويأمر بالأناة.

(١) منارتين

ثم أن الوزير أرسل له عسكرًا ورئيسهم سليمان آغا المناخور ليشدوا عضده، ومعهم من شيوخ أهل البادية صفوق بن فارس الجربا الشمري.

وأما البصرة فإنها في تلك الأيام آمنه [٦٠] بسبب سياسة متسلمها وشجاعته، وساعده على تأمين أطرافها سكان بلدة الزبير، وشدّوا عضده، وقد ذكرت قبلاً أن فيصلاً نزل دباسلال وأكثر على البصرة بالغارات، فلما سافرت أمام مسلط رحل عنها ونزل على أخيه في نهر معقل، وأشار عليه

أن يذهبا إلى والدهما، ويستشيراه فلم يقبل ما أشار به أخوه قائلاً لا أحول حتى أملك البصرة بالسيف وأجعل عاليها سافلها، وأقتل عالمها وجاهلها، وأستبيح الفروج وأهدم القصور وأريق الدماء في طرقها.

فلما سمع أخوه مقاله قام من عنده موقنًا أن الله لا ينصره ما دامت هذه نيته، وسافر إلى والده، وعند قدومه على والده ورد محمد بيك الكتخدا ليضرم النار أكثر من الأول، وما درى أنه أشأم من طويس، ما ترك بقبيلة إلاَّ حل بهم الدمار.

وأما ماجد بن حمود فإنه جمع جموعه وأكثرهم روافض كعب وصنع سلالم ليصعد بها سور البصرة، وهجم على البصرة ونادى مناديه أن الأمير ماجد أباح البصرة ستة أيام، فلا تدعون فيها فرجًا ولا مالاً إلاَّ سلب، فخرج عليهم عسكر عقيل النجديون، وسكان الزبير ونشب بينهم القتال، وصبّوا عليهم من الرصاص الذي يزيد على المطر، فما اشتد الوطيس إلاَّ والهزيمة على رأس ماجد وقتلت عساكره أشر قتله، وركب الباقي متن الفرار، وانقطعت العسكر مع المتسلم، ونهبوا خيام ماجد وأموالهم وسلاحهم ورجع النجديون إلى البصرة منصورين غانمين.

ولما ورد ماجد على أبيه وجده قد فارق عزّه وسؤدده، وذلك أن عقيلاً نزل البغيلة، وورد عليه أعمامه الكرام، وفرسان بني عمه فأكرمهم وحاداهم، فلما رأى حمود أن إخوانه فارقوه علم يقينًا أن سعده قد أدبر، وأن سعد الوزير في شبابه مقبل، فركب خيله، ولزم الفرار إلى البادية لدهائه وعقله، فورد عقيل على الوطن بعسكر الوزير، واستقر على كرسي حكومته مكرمًا لبني عمه وعمومته، فلما استقر عقيل وأطاعه الحاضر [٦١]، والبادي رجع المناخور بعسكره إلى بغداد.

وفي الثالث عشر من صفر ورد الشفلح على الوزير فعفى عنه وأكرمه وهكذا عادة الوزير سريع العفو على المجرمين، والشفلح هذا شيخ قبيلة زبيد، وكانت قبل الآن سنية، وأما الآن فبلغنا أنهم ترفضوا، ولعلهم اكتسبوه من جيرانهم.

باب

فيمن قرأ عليهم العلوم الوزير المترجم داود باشا:

أما القرآن فجوّده على شيخ القرّاء محمد أفندي والموصلي، وأما النحو والصرف فقرأهما على المنلا حسن بن علي الزوزجي، وأما علم الرياضي فقرأه على لطف الله أفندي بن عبيد الله كاتب الديوان زمن سليمان باشا أبي سعيد، وأما المطوّل فقرأه على أسعد أفندي بن عبيد الله بن صبغة الله مفتي الحنفية في دار السلام، وقرأ عليه أيضًا علم آداب البحث والمناظرة وعلم الوضع، ثم قرأ علم المعاني والبيان والبديع على المنلا صبغة الله بن مصطفى الكردي، وقرأ عليه أيضًا علم الأصول وتفسير البيضاوي.

باب

في ذكر من أجازه من العلماء في العلوم والحديث:

أفضل من أجازه مولانا السيد زين العابدين جمل الليل وقد مرّ طرف من ترجمته والثناء عليه، وسنده معروف مشتهر عند جميع الأمم، توفي السيد زين العابدين جمل الليل المدني سنة ١٢٣٥هـ خمس وثلاثين ومائتين وألف، وله مؤلفات بديعة، منها كتاب في المشتبه والمفترق، ومنها اختصاره للمنهج وشرحه.

وممن أجاز الوزير المؤيدي داود باشا شيخنا علي بن محمد السويدي البغدادي الشافعي، وسنده معلوم، توفي رحمه الله تعالى بالشام سنة ١٢٣٨ ثمان وثلاثين ومائتين وألف.

بـاب

في ذكر من أخذوا العلوم عن الوزير المترجم داود باشا:

وهم كثيرون يطول استقصاؤهم، فمنهم مولانا السيد محمود البرزنجي الذي اشتهر علمه في بلاد الأكراد اشتهار الشمس في الرابعة، ومنهم العلاَّمة محمد بن النائب، وغيرهم ممن لا يحصون عددًا.

انتهى ما كتبه الشيخ عثمان بن [٦٢] سند البصري من أخبار الوزير داود باشا والي بغداد، وبعد هذا صار المؤلف يسرد أبحاثًا أدبية وقصائد ونثرًا، دالة على سعة باعه في المنثور والمنظور، ولكننا لخلوها من الوقائع التاريخية أضربنا عنها فإن أكثرها أحاجي ونوادر على طريق المقامات، ليس هذا المختصر محلها، وقد تمّ المختصر على يد جامعه الفقير إليه تعالى أمين بن حسن حلواني المدني الحنفي تغمده الله برحمته.

تحريرًا في ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٣ ثلاث وتسعين ومائتين وألف من هجرة سيد المرسلين ﷺ.

❊ ❊ ❊